السَّعيد صبحي العيسوي

الغرور العلمي

وَأثَرُهُ في العقلِ العلميّ وأبجديّاتِ الطّلبِ




الغرور العلمي
وأثره في العقل العلمي وأبجديات الطلب

© دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العيسوي، السعيد صبحي محمد
الغرور العلمي - وأثره في العقل العلمي وأبجديات الطلب. /
السعيد صبحي محمد العيسوي.- الرياض، ١٤٣٩ هـ
١٧٨ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٨١-٢٨-٧
١- الأخلاق والمهنية أ. العنوان
ديوي ١٤٧,٣ ١٤٣٩/١٤٩٣

رقم الإيداع: ١٤٣٩/١٤٩٣
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٨١-٢٨-٧

جرى تنضيد الكتاب وتجهيزه للطباعة باستخدام برنامج أدوبي إنديزاين، وإدراج الآيات القرآنية بالرسم العثماني وفقًا لطبعة مجمع الملك فهد الأخيرة باستخدام برنامج **«مصحف النشر للإنديزاين»** الإصدار: **(متعدد الروايات)** وهي أداة برمجية plug-ins مطورة بواسطة **شركة الدار العربية لتقنية المعلومات** *www.arabia-it.com* الرائدة في مجال البرمجيات المتقدمة لخدمة التراث الإسلامي.
الصور مرخصة قانونيًا من *www.shutterstock.com*
الخطوط وتصميم الغلاف : **دار الميمان للنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى ١٤٣٩هجري - ٢٠١٨م



البريـد الإلكترونـي: *info@DarAlMaiman.com*
موقعنا على الإنترنت: *www.DarAlMaiman.com*
تابعنا على تويتر: *@DarAlMaiman*
هاتف: +966 11 4627336
فاكس: +966 11 4612163
جوال : +966 566405291



الغرور العلمي

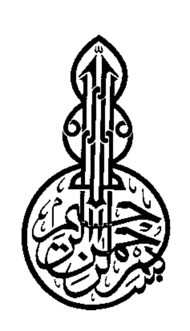
وأثره في العقل العلمي وأبجديات الطلب



تأليف

السعيد صبحي العيسوي





المقَـدِّمة

الحمد لله، والصلاة والســلام على رســول الله محمد، وعلــى آله وصحبه؛ وبعد:

فالنَّاظر إلى الواقع العلمي لا تكاد تخطئه ظاهرة متوطِّنة في سلوكياتِ كثيرٍ من منتسبي الطلب، أضحت وكأنها من الأبجديات! تتقاطع أوصافها عند حيِّز (الغرور) و(الزَّهْو) العلمي.

وإذا كان مــن معاني الغُرور: (الخِدَاع)، فإنَّ أول مخدوع هو المغرور نفســه؛ ليُخدع برؤية حُســنٍ ظاهرٍ توهَّمه في نفســه مقارَنًا بفســادٍ ظاهرٍ رآه في أترابه، ولأن الغُرور خدَّاع؛ فإنه يخيِّل إلى صاحبه أنه الصادق المتجرِّد، وشتان بين صادقٍ ومتملقٍ، ومتجردٍ ودهَّانٍ، فلا جَرم بعدُ أن تغرَّه نفسه، وحالُه كمؤمِّلٍ مِن سُحب الصيف، فكم من ســحابةٍ أعقبتها رمضاء الكآبة، وكم من نشــوةٍ جرَّت وحشة، وشهوةٍ أفضت إلى كَبوة، وليس وراء ذلك إلا لهيبُ التمنِّي الـمُحرِقُ.

لذا فإنَّ المعنى الدائر في فَلَك هذا الكتاب كشــف جناية الغرور العلمي على العقل العِلمي من ناحية، وكذلك بيان أثره في انحراف مســيرة العلم والتعلُّم وخرْق أبجدياتهــا؛ فليس أثره بمحصور في القدح في الدِّيانــة، يوضحه: أنَّ العقل العلمي الحقيق لا يعــرف إلَّا ذهنًا صافيًا وقلبًا صادقًا، فلا تغُرُّه (ألــوان الحرباء الخادعة)، ولا يُعجبُهُ (زَهوُ الطاووس).

ومردُّ ذلك إلى أنَّ الغرور العلمي يلجُ بالعقل في أطوار غريبة وأهواء تتنازع رغباته، فيفقد معها الطالب قالبَه وبصمتَه الخاصة، ولأن العقل يتعامل مع الحقائق؛ فسرعان ما ينكشف زيفُ التناقض الذي يختلج الذهن، ويَجثُم على رُوحه. فالمغرور الآن يقف أمام ظاهرة قد نصطلح على تسميتها بـ(مَيْع الأذهان)، ويُقصد بها هنا ذوبانها وتماهِيها في أطوارٍ أخرى، يفقد معها الطالب (ذاته) و(رُوحه) الشخصية.

أمَّا اصطدامه بأبجديات الطلب ومُسلَّماته: فإن نفثات الغُرور والزهو تخون المتعلِّم أحوجَ ما يكون إلى الصفاء؛ فكم مرة يعمدُ الطالب إلى الحفظ والضبط، فتأتيه أكدار النيَّة ونبضات العُجب لتعكِّر صفوَ القلب.

وكم مرة يُحضِر قلمَ التحرير فتهُبُّ سَمُوم الزهو لتقتلع بقايا النية وأطلالها، ليَهِيم بأحلام اليقظة في صحراء مجرَّدة عن المعاني.

وكم من نابهٍ أمضى ريعانَ الصبا وزهرته عكوفًا على الاستذكار، حتى إذا بَزَّ قرنه صال وجال، فأتته لوثاتُ الفخر لتُثير على قلبه غمامة تَحُول بينه وبين ذلك القلب، فلم يَعُد له عليه من سلطان، وعاد جليلُ ما يصنع هباءً منثورًا، وأضحى فتيلُه من بعد قوةٍ أنكاثًا.

وكم من منتسبٍ إلى الطلب أحكَم ألفاظه بعِقال التواضع، أمَّا القلبُ فهو جامحٌ في وادي الفخر! وكم من فاضلٍ انحطَّت رتبتُه لدخيلة السُّوء عليه! لكأنه لم يخطُ يومًا على مشارف الجادَّة، أو حلَّ بوادٍ غيرِ ذي زرع!

فعجيبٌ أمرُ هذا البلاء!

كم فتَّ من أكباد، وحرَّق أفئدةً أمَّلت لها الريادة في سماء العلم والطلب! فيا له من مرض! وما أضرَّه على عالِم وطالب! يَئِدُ المولود وهو بعدُ زهرةٌ نَدِيَّة، ويبتسرُ

الحمل ولمَّا يستهلَّ، ويمحق ثمرة العلم بعد إيناعها، ويخسف بالقلب ليغيب في عتمات نفسٍ أمَّارة.

فهل يُنتظر بعد هذه الأهوال إلَّا حرقُ العقل والعلم والمستقبل؟! ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ ﴾[1].

هذا؛ وقد ذكر أئمة (التراجم) بعض المنتسبين إلى الطلب ممن ارتأوا فيهم صفة الغرور والزهو، فكان لَقْطُ هذه الإشارات وتحليلُها واستثمارها، والله - سبحانه - أعلمُ بحقيقة ما نُسب إليهم، فقد يكون سقوطهم فيها من قبيل التأويل أو التوهُّم الذي قد تُدفع بمثله التُّهَم، وإيرادُ بعضها هنا يعتبر من أقوى الزواجر عن التخلُّق بها، وفيها إعلامٌ بأنها تحطُّ الرُّتب، والحالُ هنا ليس مقامَ إنشاءٍ وابتداء برَمْيِ التُّهَم، وإنما الاستشهاد بقول أئمة السِّيَر، فليكن ذلك على ذُكرٍ.

وقد تضافرت الدواعي لإبراز موضوع الغرور العلمي؛ فمن ذلك أن كل سالك لطريق الطلب عُرضةٌ للإصابة به -بمن فيهم مقيدُه- وإذا كان سبيل النجاة يُرتجى بالاهتداء بما في الكتاب والسنة، وما دوَّنه العلماء في هذا الباب= فقد بات التنقيب عن ذلك المعنى الكامن في طيَّات مصطلح (الغرور العلمي)، واستحضاره من مدونة السَّلف من أوَّليات هذا البحث؛ تحذيرًا، وتنبيهًا على نقائصه، واقتلاعًا لجذوره، وقد أودعتُ كلَّ باب منه نفحةً من أَثَرهم. ومن دواعيه: الشفقة بالطالب المُغْتَرِ، ومحاولة إنقاذه، والتحذير من خطره أيضًا، وبيان جنايته، ونشر حقيقة الهشيم الذي حَصَدَه؛ فكان الخطاب للعالِم تارةً، وللطالب أخرى؛ فهو مَعنِيٌّ بمَن هُم على مدارج الطلب.

(١) سورة الكهف، الآيتان: (١٠٣، ١٠٤).

ولا يفوتني أن أتوجَّه بالشـــكر الجزيل والدعاء لكل من أعانني بنقلٍ أو فكرة، وفي مقدَّمهم شيخُنا الشيخ ساعد بن عمر غازي، وفَّقه الله تعالى لكل خير.

ولا يَسَـــعُ العبدَ إلَّا الْتماسُ الهداية من الله، والدعاء بالثبات في كل ســـجدة وخلوة، والتوكل على الله في جميع أمـــره، فاللهم يا مُقَلِّبَ القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك.

كتَبه

السَّعيد صبحي العيسوي

Esawi.said@gmail.com

@esawi_said

مكَّة المُكرَّمة/ ١٤٣٩هـ

حقيقة الغرور العلمي

مصطلح (الغرور العلمي) يكشف عن مركب يجمع جذورًا متقاربة الأثر، وأدواءَ مؤتلفة المواد؛ المادة الأولى: (خداعٌ) للنفس، والثانية: (تغرير) بغيره، والثالثة: (عُجب) و(استعظام)، والرابعة: (زهو) بالمحصَّل، والخامسة: (تِيهٌ)... إلخ، فكان إطلاق مصطلح (الغرور العلمي) كحدٍّ تقريبيٍّ لهذه الأدواء.

(الغرور): يعود أصل هذه الكلمة إلى أمور، منها:

١- خداع للنفس: اغترَّ الرجل، واغترَّ بالشيء: خُدع به. والغَرارة من الإنسان الغِرِّ، ومن الغار وهو الغافل اغترْت. واغترَّ بكذا: خُدع به، وظنَّ به الأمن فلم يتحفظ. والغرير هو الشاب الذي لا تجربةَ له، كالغِرِّ، والغريرة: الشابة الحديثة التي لم تجرِّب الأمور. فالغرور بهذا: (إيهام يحمل الإنسان على فعل ما يضرُّهُ)؛ مثل أن يرى السراب فيحسبه ماءً[1].

٢- خداع الغير: يقال: غرَّه يغرُّه غرًّا وغرورًا: خدعه وأطمعه بالباطل. فهو إخفاء الخدعة في صورة النصيحة؛ فكأن الغرور يُوقع المغرور فيما هو غافل عنه من الضَّرر[2].

---

(١) يُنظر: مختار الصحاح، ص١٩٧، ومجمل اللغة ٣/ ٦٨١، والغريب المصنف، لأبي عبيد ١/ ٤٢٣، وأقرب الموارد، للشرتوني ٤/ ٢٧، وتاج العروس ١٣/ ٢٢٣- ٢٢٤، والفروق اللغوية، ص٢٥٩.

(٢) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم ٥/ ٣٦٠، والتوقيف على مهمات التعاريف، ص٢٥٢، والفروق اللغوية، ص٢٥٩.

٣- **تزيين الخطأ والإيهام**: يقال: غـرَّه يغرُّه غرًّا وغرورًا وغِـرة فهو مغرورٌ وغريـرٌ: خدعه وأطمعه بالباطـل، واغترَّ: قبل الغرور. (والغُـرور): الباطل، مصدر غررت. وقيل: إيهام حال السرور فيما الأمرُ بخلافه في المعلوم. فحدُّه: تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب[1].

٤- **عُجب**: نجد معنى العُجب يقترب من معنى الغُرور، خاصة إذا استُعمل الغرور بمعنى (تزيين الخطأ والإيهام بأنه مصيب)[2].

* **ومما يحسُـن إلحاقُه هنا تناول الأصل اللغوي لهذه المفردات: (العُجب)، و(الزَّهو)، و(الفخر)، و(التِّيه)، و(الكِبْر)، و(العلم)، و(التعالم):**

---

(١) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم ٥/ ٣٦٠، والفـروق اللغوية، ص٢٥٩، وغريب القرآن، للسجستاني، ص١٤٩، والكليات، ص٦٧٢.

(٢) وقد رأيت بعض المعاصرين قد توسـع في استعمال مصطلح الغرور العلمي؛ فتجد الشيخ أحمد شـاكر -رحمه الله تعالى- قد استخدم هذا المصطلح في مقدمة تحقيق كتاب الشعر والشـعراء لابن قتيبة، مريدًا به (الضيق بالنقد والتسـامي عليه). الشعر والشعراء ١/ ٣٢. ولعله يقصد أن ذلك أثر من آثار الغرور العلمي.

وفـي معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١٦٠٦، نجـد مؤلفِيه يجنحون إلى إدخال العجب والرضـا عن النفس، فقالوا في تعريف الغرور: انخداع المرء بنفسـه وإعجابه بها، ورضاه عنهـا، أباطيل، تكبّر واختيال. وشـخص ركبه الغرور: معتز بنفسـه لدرجة الغرور. غرور بالنفس: شعور خادع بالأهمية. وقالوا في تعريف (مغرور): مخدوع بنفسه، معجَبٌ بقيمته. قد نجد من الفيروزآبادي -في بصائر ذوي التميز ٤/ ١٢٩- بعض اقترابٍ من هذا المعنى؛ فيجعل مصطلح الغـرور حاملًا في طيَّاته غرورًا بالمحَصَّل العلمـيّ فيقول: (الغَرُور: كل ما يغرّك من مال وجاه وشـهوة وشـيطان، وقد فسر بالشـيطان، وبالدنيا؛ لأنها تغر وتمر، وأما الشـيطان فإنه أقوى الغارّين وأخبثهم). وهذا التعريف الذي ساقه الفيروزآبادي أقرب وأمسّ بما ناقشـه، وهو الغـرور العلمي، فكأنَّ المغترَّ بعلمه يغُرُّ غيـره بعلمه، والمغرور لا شك مضيِرٌ للغرور القاصر بخداع نفسه بما حصّل.

(العُجب): هــو الزَّهو والكبر. ورجــل مُعجَب: مَزهُو بما يكون منه حسـنًا أو قبيحًا. وقد أُعجب فلانٌ بنفســه: فهو معجَب برأيه وبنفســه. والاســم العُجْب. وحقيقته: النظر إلى نفســه بعين الاستحسان، وظن الإنسان في نفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها، وظنُّه هذا كذب، ثم يستشعره حتى يصدق به.

وبيانُ ذلك أنه يرى في نفســه فضيلة تحصل بها للنفس هزةٌ وفرح، ولا يُشترط فيه رؤية الغير، بل لو لم يوجد أحد غيره يمكن أن يحصل له العجب[1].

فالعُجب إذن: الإحســاس بالتميُّــز، والافتخار بالنفس، والفــرح بأحوالها، وبما يصدر عنها من أقوال وأفعال، محمودةٍ أو مذمومة.

(الزَّهو): هو الكبر والفخر، وقد زُهِيَ الرجلُ فهو مَزهُوٌّ؛ أي تكبر.

ومن البــاب: زُهِيَ الرجل فهــو مَزْهــوٌّ، إذا تفخَّر وتعظَّــم، والقياس فيه أن المعْجَب ذَهَبَ بنفسه متمايلًا[2]. وحدَّه السيوطي بقوله: (الزَّهْوُ: الاستطارة من الفرح بنفسه)[3].

(الفخر): هو المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويقال: له الفخر، ورجل فاخر، وفخور، وفَخِير، علــى التكثير. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۝١٨ ﴾[4]، ويقــال: فَخَرتُ فلانًا على صاحبه أفخَرُهُ فخرًا: حكمت له بفضلٍ عليه، ويعبر عن كل نفيس بالفاخر[5].

---

(١) ينظر: لسان العرب ١/ ٥٨٢، وتاج العروس ٣/ ٣١٨، وبحر الفوائد، للكلاباذي ٢/ ٥٨٦، والذريعة إلى مــكارم الشــريعة، ص٢٠١، ومعجم مقاليد العلــوم، ص٢٠٥، والهوامل والشوامل، ص٦٦- ٦٧، وأبجد العلوم ٢/ ٨٥.

(٢) ينظر: مختار الصحاح، ص١١٧، ومقاييس اللغة ٣/ ٢٩.

(٣) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، ص٢٠٥.

(٤) سورة لقمان، الآية: (١٨).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن ٢/ ٤٨٤، وينظر: الذريعة للراغب، ص٢٠٠.

(التِّيــه): قريب من العُجب، لكن المعجب يُصدِّق نفســه فيما يظن بها وهمًا، والتيَّاهُ يصدقها قطعًا، كأنه متحيِّرٌ في تِيهِ[1].

(الكِبْر): الكِبْر والتكبر والاستكبار تتقارب معانيها.

فالكبرُ الحالة التي يتخصَّص بها الإنســان من إعجابه بنفســه، وذلك أن يرى الإنسان نفســه أكبرَ من غيره. وأعظمُ التَّكبُّر التَّكبُّرُ على الله بالامتناع من قبول الحقِّ والإذعان له بالعبادة. والاسْــتِكْبارُ يقال على وجهين؛ أحدهما: أن يتحرَّى الإنســان ويطلب أن يصير كبيرًا. والثاني: أن يتشبَّع فيظهر من نفسه ما ليس له[2].

(العِلم): عَلِمَ يَعْلَمُ عِلْمًا، نقيض جَهِل. ورجل علَّامة، وعلَّام، وعَلِيم. والعلم: إدراكُ الشيء بحقيقته.

وهــو الاعتقاد الجــازم الثابت المطابــق للواقع، أو هو صفــة تُوجِبُ تمييزًا لا يحتمل النقيض، أو هو حصول صورة الشيء في العقل، والأول أخصُّ[3].

(التعالُم)؛ يقال: تعالَمَ الشَّــخصُ: ادَّعى أو أظهر العِلْمَ والمعرفة. تعالَمَ على زملائه: تباهى وتفاخر بالعلم عليهم[4]. وقد كتب الشيخ بكر أبو زيد كتاباً بعنوان التعالم

تعريف مصطلح (الغرور العلمي) كمُركَّب:

أن الأقرب في تعريف الغرور العلمي، أنه: (شعورٌ خادعٌ بحصولِ صُورةِ العِلْم مع الفَخْر والزَّهْو).

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٢٠٢.
(٢) المفردات في غريب القرآن، ص٥٤٥، مختصرًا.
(٣) العين ٣/ ٢٢١، وتاج العروس ٣٣/ ١٢٧.
(٤) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١٥٤١.

وبيانُه أن يقال: (**شعورٌ خادع**): يُعنى به ما يدركه الإنسان في نفسه من إحساس خادع بحصول صورة العلم.

وعبارة (**بحصول صورة العلم**)؛ أي سواء بلغ رُتبة العِلم في الحقيقة أو لا.

وعبارة (**الفخر والزهو**): أي في نفسه أو على غيره، وعُبِّر بلفظ (**الفخر والزهو**) بدل العُجب، لوفرة معنى التَّعدِية، وتأكُّد الزهو والفخر بالمحصَّل.

ومما يُلحظ هنا أن المغترَّ لَمَّا نظر فيما حصَّله، تسرَّب إليه شعور الانخداع في معرفة رُتبة نفسه، واغترَّ بصورة ما حصَّل، وثارت في نفسه دعاوى الاستحقاق، فكان نتاج ذلك كله تسرُّب الزهو والفخر -اللذان هما حقيقة العُجب- إلى ساحته.

الغرور العلمي
ومحنة (النَّوْع) و(العَيْن)

مما ينبغي الإشـارة إليـه أن يُعلم أن هناك انفصالًا كبيـرًا بين الحقائق (لغوية أو شـرعية)، وتنزيلها على (الواقع والأعيان) في جانب الأخلاق حسـنها وقبيحها، فالفـرق واضح جدًّا بيـن التأصيل النظري والحـدِّ والماهية والأصـل اللغوي ثم الشرعي، وتمثيل ذلك وتعيينه وذكر أضرابه وصوره.

كما أن تحقُّق الأخلاق في الناس (نسبيٌّ)؛ حيث تتفاوت نسبة وقوعها، فيقال: هذا حسـن الخلق وهذا أحسـن منه، وهذا كبير الهمَّة وهذا أصغر همةً منه. وحكمنا أيضًا بظاهر ما وصلت إليه عقولنا ومصادرنا في التطبيق على الأعيان.

لذا، فإن المؤثر الحقيقي هو (النية) و(المعنى) و(المخبَر) و(الطَّوِية)، ومهما وُصـف رجل بـ(غرور) و(زهو)، فغايةُ ما هنالك أن يكـون حُكمًا بالظاهر لا حُكمًا في الواقع والحقيقة، كما أنه ليس حكمًا له بحصول الصورة مستتمَّة الأركان -والتي سـيرد نعتُها في طيَّات هذه الورقات- بل قد يكون غرورًا نسـبيًّا، أو فخرًا أو دعوى استحقاق، اضطر إليها دفعًا لضررٍ أو جلبًا لنفعٍ ديني أو دنيوي.

كان لا بد من هذا البيان؛ لئلا تُطلَق سـهامُ المـلام لمحض إطلاق أوصاف الغرور على صـورةٍ من الصور، أو عـدِّ فعلة من الفعال ضربًا مـن ضروب الزهو والاغترار.

والأمـر في النهاية اجتهـادٌ للوصول إلى الغرض الذي سُطِّر من أجله، وهو تحذير المطَّلع جنايةَ الغُرور على العقل والطَّلب.

* * *

ومما يجـدر ذِكرُه هنا، تلك الإشـارة النفيسـة من العلَّامة الخضر حسـين رحمه الله، يحكي فيها عُسْرَ تطبيق الحدود والرُّسوم على الأحوال الخاصة، فيقول: (يتعرَّض الكاتبون في الأخلاق إلى رسـومها الفارقة بينهـا، بحيث تتمايز حقائقُها، ولا تختلط حدودُها، والذي يعسـر أحيانًا إنما هو تطبيق تلك الرسوم على الأحوال الخاصـة، ومعرفة أن هذا موقع الإقدام -مثلًا-، فنُسـمي الإحجام عنه: جبنًا، أو هو موقع الإحجام، فنسـمي الإقدام عليه: جرأة، وقد تلتبس بعض المواطن، فلا يدري الناظر هل يحسـن فيها الترفُّعُ، فيكون التنازل ذِلة، أو يليق بها التنازل، فيكون الترفع كِبْـرًا؟ فلا بدَّ حينئذٍ من جودة الرأي، وإمعان النظر فـي تعرُّف المواضع التي يصلح فيها؛ مثل: الإقدام، أو الصفح، أو البذل، أو الترفُّع، التي هي آثار الشـجاعة، والحلم، والكرم، وعِزَّة النفس)[1].

(١) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين ٥/ ٢/ ٢٣٨.

صَرعى الغرور العلمي

(قارَبَ أن يَسُود، لولا عُجبٌ ردَّاه، وردَّ وجهه عن الطريق فما أدَّاه)

ابن فضل الله العمري

(مسالك الأبصار: ١٢/ ٢٦٩)

لَكأنَّه الجنون: يصرع صاحبه ليعتزل مطارحَ الجادَّة!

أو قُلْ:

الجناية: تغشاه بسكرتها فلا يرى بعدها لطريق مَعْلمًا!

إنهم صرعى الغرور.. وما أكثرَهم!

مصرع الانتكاس:

إنَّ الــغـــرورَ إذا تــمــلَّــكَ أُمَّـــةً

كالزَّهــرِ يخفــي المــوتَ وهو زُؤامُ

من الحقائق الهامَّة التي يجب أن تشغل عقل المندرِج في سِلك الطَّلب أن يعلم أن محض طلبه ونَصَبه لا يمنح ضمانًا لسالكه بالاستقامة الكاملة والثبات لمجرَّد الانتساب إليه، فالمتعلِّم ليس بمأمن مِن تسَلُّلِ داءِ أهل الطاعة والعلم، إن لم يكن أولاهم؛ بما حاز من موجبات الفخر؛ كالعلم، والفَهم.

وأخبار المنتكسين بعد بلوغ المراحل العليَّة في الطلب قديمًا وحديثًا تُقرِّر

حقيقةً مؤلمةً مُخيفة؛ وهي أن السِّرَّ قابعٌ في دهاليز النفس؛ فمهما تعلَّل المرء بعواملَ خارجة عن قُدرته إلَّا أن الواقع حاكمٌ بأنَّ القلب هو المتَّهَم الأول، فإن فيه جذورًا تنخر في ماهيَّة طلبه، وتُنتج فروع الانتكاسات والأدواء؛ فمن بعد قوَّة العلم والتحصيل تأتي انتكاسات القلب والعمل، ومن بعد جمع القلب ترى شتات النيَّات.

فكم فَتَكَ (الغرور العلمي) بقلوبٍ وعقولٍ وأذهان، فأَرْدَاها في مهاوي السقوط والهوان؛ وأصلُ ذلك أنه لا بدَّ لتلك القدرات العلمية والإمكانات التحصيلية من قوى تمدُّها، ومحركات تستحثُّها، وأسوار تحميها، وقدوة يُستعان بها؛ وإلَّا سقطت قُوَاه.

وغنيٌّ عن القول أن المغترَّ يفقد علومه واحدًا تلو الآخر كأوراق الخريف، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (من الذنوب ما يكون سببًا لخفاء العلم النافع أو بعضه؛ بل يكون سببًا لنسيان ما عُلِم)[1].

سدود الحرمان:

المغرور يُقيم كلَّ يوم سدودًا تحجزه وتُقصيه، فهو يرقبُ رِفعةَ بنائه ويرصد مطالعَ نجمه، ليرى الحدَّ الذي وصلت إليه (هيبته) و(عِزَّته) و(رِفعتُه)، فهو وإن ظنَّها حاصلة فهي في الحقيقة محضُ سراب يُخفي وراءه عقابًا وبلاءً أنزله الله به، وكفى به خذلانًا أن يكون مرصادًا لمقامه وشرفه عند الناس! ويتعامى عن حقيقة العقاب الذي اجترَّه قلمُه ولسانُه وحركاته! فهي سدودٌ من الحرمان؛ تَحُول بينه وبين (الرفعة الحقيقية) و(العزة الحقيقية).

وكأن الأصل اللغوي لمادة (الغرور) يَفيض هنا بجلاء في شخص المزهو، فبينما يظنُّ أنه قد غرَّ غيرَه إذا به قد سقط في حبالته التي نصبها؛ فشرب الكأس، وخُدع

(١) مجموع الفتاوى ١٤/ ١٦٠.

بنفسه، وتاه، فحُرم نفسه التي وُلد بها نقيَّةً طيبةً من رَحِمِ العلم الأصيل، وكذلك حُرم حقيقة تلك النفس القوية التي يُروِّج لها بين الناس حتى أماعَها بألوان الحرباء.

إنها سدودٌ من الحرمان؛ حرمان الناصح المحبِّ، حرمان الصدق في المشاعر، حرمان الانسجام النفسي، حرمان لذة ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ ﴾[1].

وقد صدق أحمد بن محمد الواسطي النحوي؛ إذ يقول:

كم جاهــل متواضع ســتر التواضعُ جهلَه

ومميَّز في علمــهِ هــدمَ التكبُّر فضله

ومــن أعظم الحرمان: حرمان التوفيق والإعانة والســداد؛ وهذا يراه العبد في نفسه وغيره جليًا، فما أُعجب عبدٌ بعملٍ أو علمٍ إلَّا حُرِم لذَّته وفائدته، وحِيل بينه وبين الإكمال في مُجمَل الأحوال؛ لأنه فقد الافتقار إلى واهب المِنَن والعطايا، وحُرم لذة الانكسار والضراعة إلى الله لنَيْل التوفيق والقَبول[2].

---

(١) سورة الإنسان، الآية: (٩).

(٢) ومن اللطائف في هذا ما حكاه أبو الحســن الماوردي رحمه اللــه يفيد فيما نحن بصدده، فيقــول: (وممَّا أنذرك به من حالي أنّي صنفت في البيوع كتابًا جمعت فيه ما اســتطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفســي وكددت فيه خاطري، حتى إذا تهذَّب واستكمل، وكدت أعجب به، وتصورت أنني أشــدُّ الناس اضطلاعًا بعلمه، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيعٍ عَقَداه في البادية على شروط تضمَّنت أربع مسائل، لم أعرف لواحدة منهن جوابًا، فأطرقت مفكرًا، وبحالي وحالهما معتبرًا، فقالا: أما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة؟ فقلت: لا. فقالا: واهًا لك! وانصرفا. ثم أتيا مَن يتقدَّمُه في العلم كثير من أصحابي فســألاه، فأجابهما مسرعًا بما أقنعهما، وانصرفا عنه راضيين بجوابه، حامدين لعلمه، فبقيــت مرتبكًا، وبحالهما وحالــي معتبرًا، وإني لعلى ما كنت عليه من المســائل إلــى وقتي، فكان ذلك زاجرَ نصيحة ونذيرَ عظــةٍ تَذلَّل بها قياد النفس، وانخفض لها جناح العُجب، توفيقًا مُنحتُه ورُشدًا أوتيته). أدب الدنيا والدين، ص١٠٠ - ١٠١.

افتقاد المحبة:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣ ﴾[3].

فأي عقاب يحلُّ بالإنسان أنكى من كون الله تعالى لا يحبه؟!

ولو عرَف الطالب حقيقة هذا العقاب البئيس لَفَرَّ منه ومن موجباته؛ فإن محبة الله والرضا عن العبد غايةٌ ما بعدها غاية، لكن الحالَّ بأرض الغرور والزهو قد (عَمِيَ) و(عَمِهَ)، وغفل عن الإحساس بالعقاب.

اغتيال جمال العلم:

ألَـجَّ لـجـاجًـا مـن الـخـنـفـسـاء
وأزهـى إذا مـا مشـى مـن غراب

من اليقينيات التي تواردت عليها عقول الأمم: (جمال العلم)، و(حُسن صورته)، و(بهاؤه)، حتى بات التحلِّي به زينةً ورِفعةً وشرفًا بين الناس، فاستقرَّ هذا في الأذهان، ومما يَزيد العلم جمالًا وزينةً تخلُّقُ أهلِه بالسكينة والتواضع، ونبذُ الكُلفة وخفض الجناح.

ومن جمال العلم أن العالِـمَ يسمَّى (حبرًا)؛ لما هم عليه من جمال العلم وبهائه[4].

(١) سورة النساء، الآية: (٣٦).
(٢) سورة لقمان، الآية: (١٨).
(٣) سورة الحديد، الآية: (٢٣).
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٦١.

فإن ترَ عالمًا متواضعًا مُزدانًا بخفض الجناح، متَّشــحًا بحسن الخُلُق فهذا هو الطبيعي، وهذه هي الصورة المنسجمة مع روح العلم وسُمعته، فإذا ظهر خلاف ذلك مِن تعاظمٍ وفَخرٍ وغُرورٍ فإن المآل هو تشوُّه صورة العلم واغتيال جَمَاله على مصارع الغرور.

وأنت تجد هذا في نفسك!

فتــرى قلبــك نافرًا مــن بعض المنتســبين إلى الطلــب ممن ابتُلــي بالغرور العلمي =وإذا بنفســك قد صُدَّت عنه، وتمنَّيت أن لو بقــي الرجل جاهلًا، وألَّا يكون حصَّــل ما يزيد من بلاء النــاس وفِتنتهم بصورة العلم الذي يحملــه، أو الطلب الذي ينتسب إليه.

ومن صُوَر التشــويه: تســرُّب الوضاعة إلى المتَّصف بهذا الخُلق، والأمر كما قيل: (ما تَاهَ إلَّا وضيعٌ، ولا فاخَرَ إلَّا سَــقِيط، ولا تعظَّم إلَّا لَقيط)[1]. فلا جرم إذن أن تجده لقَّاطًا للمدائح، مستشرفًا لنثارها، متطفِّلًا على موائد الثناء.

طُفيليٌّ في ثوب العِلم:

طــفــيــلــي يــــؤمُّ الـــخـــبــزَ أنـــى

رآهُ ولــو رآه علــى يفــاعِ

قيل لأشــعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دُخَانَ جاري فأفتُّ خبزي. وقال أيضًا: ما رأيت رجلين يتســارَّان في جنازة إلا قدَّرت أن الميت أوصى لي بشــيء من ماله، وما زُفَّت عروس إلَّا كَنَسْتُ بيتي رجاءَ أن يغلطوا فيدخلوا بها إليَّ[2].

(١) محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني ١/ ٥٣٥.

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف، ص٩٨.

فكما أن لموائد الطعام عُمَّارًا وطفيليين يلتمسون الأَكْلَةَ والجِلسة ويحيون ذكرها؛ فإن في المتنسبين إلى العلم الشريف عُمَّارًا لسُننِ التَّمادح، وكم على مدارج الطلب مِن طُفيليٍّ يتابع بشغفٍ مسالكها وجلساتها و(مواقعها)؛ ليظفروا بنثارها، فوراء كل مائدة طفيليٌّ يتحسَّسها، وكلٌّ بحسبه؛ لذا فلقَّاط نثارِ المدح والإعجاب طفيليٌّ في ثوب العِلم.

لكن البون شاسع بين ملتقط الطعام، وطالب العلم؛ فقُصارى أمر الطفيلي أن يكون أكولًا بَطِينًا، فأين أنت منه يا طالب العلم، وقد بذلت نفسك لتترقى في مدارج العلم؟!

إن (الغرور) و(الزهو) و(العُجب) لِدَاتُ[1] التطفل، وترائب الحُمق، ونسل الانكباب على الدنيا؛ لسفول ذلك القلب صغيرِ الهمَّة ليلتقط تلك النثار التي ينفثُها الناس بلا حساب، بحقٍّ أو بغير حق.

ولعل هذا سرُّ اقتران (الصغار) و(النقص) بـ(الاغترار)، فأمرُ الغرور آيلٌ إلى ذِلَّة؛ إذ هما مولودان من رحمٍ واحدة؛ يقول الماوردي رحمه الله: (العُجب نقصٌ ينافي الفضل... فلا يفي ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقصٍ وعُجب)[2]، ونحوُه قول شيخ الإسلام رحمه الله: (وكم من مُدَّعٍ للمشيخة وفيه نقصٌ من العلم والإيمان ما لا يعلمه إلَّا الله تعالى)[3].

وإذا أنعمت النظر في العالمين رأيت ذلك حقًّا وكأنها سُنة في الخَلْق؛ يقول الشافعي رحمه الله تعالى: (مَن سلَّم نفسه إلى فوق ما يساوي، ردَّه الله إلى قيمته)[4].

(١) لِدَة الإنسان: الذي يُولد معه، والجمع: لدات، ولدون. المخصص، لابن سيده ٢/ ٣٧٤.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص٩٩.

(٣) مجموع الفتاوى ١١/ ٥١٤.

(٤) مناقب الشافعي ٢/ ١٩٩.

ومِن مَقول الزمخشـري على طريقة الأمثال: (كبَّ الله على مناخره، مَن زكَّى نفسَه بمفاخره، على أنَّ رُبَّ مسـاخرَ يعدُّها الناسُ مفاخرَ)[1]. ونحوه قول الشوكاني رحمه الله: (وهكذا كلُّ مَن تردَّى برداء الاستكبار عُوقب بلبس رداء الهوان والصَّغَار. ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفُّع)[2].

والصغار -بلا شك- لا يكون من باب العقاب المرجأ إلى يوم البعث فقط؛ بل هو معجل مشاهد، تدركه من نفسك ويدركه غيرك، على وزان قسط.

وهل بعد الصغـار والتطفل والدعاوى إلَّا اكتمال دائـرة الحماقة؟! لذا، فإن الرباط وثيق جدًّا بين زهو المغترِّ وفضلة الحمق، وقد قيل: (العُجب فضلةٌ من الحمق صَرَفْتها إلى العُجب)[3].

وقيل أيضًا:

يـا بـحـر جـهـل قـد زخـر

بـالـحـمـق دهـرًا فـافـتـخـر[4]

يا طالب الرُّقي والرِّفعة!

إن الرِّفعة من فوق؛ من السـماء، وربُّك هو أعلم بمن اتقى، فما لك ووساوس أقوامٍ مَفْتُونين أو فَاتنين، صُن نفسَك أن تُرى في موضع المترقِّب الطَّرِب.

المآل الوخيم:

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**يظهر**

---

(١) نقله الحموي عنه في (معجم الأدباء) ٦/ ٢٦٩٠.

(٢) فتح القدير، ص٤٦٦.

(٣) لسان العرب ١/ ٥٨٢، وتاج العروس ٣/ ٣١٨.

(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ١/ ٣٧٧.

هذا الدِّين حتى يجاوز البحار، وحتى يُخاض بالخيل في سبيل الله، ثم يأتي أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا: قد قرأنا القرآن فمَن أقرأُ منَّا؟ من أعلمُ منَّا؟» ثم الْتفت إلى أصحابه، فقال: «**هل ترون في أولئك من خير؟**» قالوا: لا، قال: «**فأولئك منكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النَّار**»[1].

فقوله ﷺ: «**فمَن أقرأُ منَّا؟ من أعلمُ منَّا؟**» محمولٌ على العُجب والزهو بعِلمهم، وهو ما أشار إليه قوَّام السُّنَّة الأصبهاني في تبويبه، إذ قال: (فصلٌ في الترهيب من إعجاب المرء بعلمه، والعمل بخلاف ما يأمر به)[2].

فعلى العبد أن يستحضر مآلَ الغرور والزهو، ومآل هذه المعاني التي تدور في قلبه وخاطره، ففي لحظة من لحظات الحياة، وبتقديرٍ من الله تعالى، يقف العبد وقد انتهى كل شيء.

ضاعت الأقلام والكُتُب..

ضاعت الصفحات و(الشاشات) و(الحسابات)..

ضاع المدّاحون..

ولم يبقَ إلَّا ما سُوِّد في صحيفة الأعمال، فإذا هي بَهَارج وزخارف وألوان وأصباغ قد مُحِيَت جميعُها، ولم يبقَ إلَّا المعدن الأصيل وما انطوى عليه القلب من حقائق، حينها يتفطَّر القلب وتُذهل النَّفس وتأتي الحقيقة الناصعة ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾[3].

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق رقم (٤٢٥)، ونحوه الطبراني في الأوسط رقم (٦٢٤٢)، من حديث عمر رضي الله عنه. وحسَّنه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم (٣٢٣٠).

(٢) الترغيب والترهيب، لقوَّام السنة الأصبهاني ٣/ ١٠٤.

(٣) سورة القصص، الآية: (٨٣).

طاشــت المداح، وطاش المدَّاحون، وذهبت بهارج الغُرور وزخارفه؛ فالعلوم والمعارف لا تُغْني عن العبد شــيئًا ما لم يُقبل على اللــه، ويُخلِص ويخضع ويتواضع لهذا الإله العظيم.

فيا طالب الرقي والمدارج!

أيُّ جناية هذه التي تجنيها على نفســك وأنت بَعدُ لا تشــعر؟! ألا ترى عقاب ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾[(١)] وهــو النمرود المتكبر؟! أغاب عنك ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾[(٢)] لإبليــس لما اغترَّ، وقال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾[(٣)]؟! ألم تقرأ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾[(٤)]؟!

فمآلُ الغرور: حسراتٌ تحرقُ الأكباد، وانحطاطٌ في الرُّتب، وعذابٌ وعقاب، وذلٌّ وصَغَار.

* * *

وليعلم طالب العلم أنَّ الدنيا بأســرها ليســت جزاءً لمطيــع ولا عاصٍ، وأن الأجر الحقيقي إنما هو يوم القدوم على الله تعالى، فازهد في الدنيا وأجرها وجزائها، ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[(٥)]، والذَّكــي هــو من يترُكُ لذة ســاعة حاضرة للذَّات لا تنتهي ولا تنقطع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس**

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٥٨).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٨).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٢).
(٤) سورة القصص، الآية: (٨١).
(٥) سورة آل عمران، الآية: (١٨٥).

يُقضى يوم القيامة عليه، رجلٌ استشهد فأُتي به فعرَّفه نِعَمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأنْ يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلَّمت العلمَ ليقال: عالِم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلِّه، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلَّا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليُقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه، ثم أُلقي في النار»[1].

يقول حافظ الحكمي رحمه الله:

ومَنْ يَكُنْ -لِيقولَ الناسُ- يَطْلُبُهُ

أَخْسِرْ بصفقتهِ في موقفِ الندمِ

ومَنْ به يبتغِي الدنيا فليسَ له

يومَ القِيامةِ مِنْ حظٍّ ولا قسمِ

كَفَاهُ ﴿مَن كَانَ﴾[2] في شورى وهودٍ وفي الـ

إسراءِ موعِظةٌ للحاذقِ الفهمِ

(١) رواه مسلم رقم (١٩٠٥).

(٢) يقصد الآيات: (٢٠) من سورة الشورى، و(١٥-١٦) من سورة هود، و(١٨-٢١) من سورة الإسراء.

والعُجبَ فاحــذرهُ إنَّ العُجــبَ مجترفٌ

أعمــالَ صاحبــهِ بسَــيلِهِ العــرمِ[1]

إذا كنت تريد أن تزهو وتُعجَب فاعجب يا عبدَ الله يوم القيامة، بعد أن ترى حقيقة ما أنت عليه، وما آلَ إليه عِلمُك وعَمَلُك، أمَّا في دار الدنيا فأنت تخادع نفسك وتغرُّها!

فالمــآلُ وخيم، عــن أبي هريرة رضي اللــه عنه قال: قال النبــي ﷺ -أو قال أبو القاسم ﷺ-: «**بينما رجل يمشي في حُلة، تُعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَه؛ إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**»[2].

يا طالبَ الرقي!

أتدري ما شأن الآخرة؟!

إنها نهايةُ آلامِك ونَصَبِك، إنها محطُّ رِحَالك..

الآخرةُ دار الجزاء وتَوْفِيَة الأعمال..

الآخرة فيها جنات النعيم، وفيها مرافقة رســول الله ﷺ، وفيها النَّظر إلى وجه ربِّ العالمين سبحانه..

إن ذكرى الجنان أشواق تهزُّ كيان الطالب، وتربط على قلبه، وتحثُّهُ على السير، ومواصلة الجهد، والبحث والحفظ والتعلُّم والتعليم؛ لأنه عمَّا قليل ســيضع الرَّحل ليقف بباب مَن كان يُخلص له، ويستر أعماله من أجله، ومن كانت تفرُّ الدمعة من عينه عند عبور أشواق اللقاء وتذكُّر الحلول بدار الحبيب دار الكرامة.

---

(١) المنظومة الميمية في الوصايــا والآداب العلمية، [ضمن مجموع الرســائل والمنظومات العلمية للشيخ حافظ الحكمي]، ص٣٨٤- ٣٨٥. (بإسقاط بيتين).

(٢) رواه البخاري رقم (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

وليست ذكرى الآخرة بذلك الحدث العادي الذي يمرُّ طَيْفُه بأطراف الذهن، بل هي الواقع في كيانه وأعماق نفسه.

إن هذه الأشواق تنفي الدخيل من الأعمال، ليظفر بصفو الودِّ في أطيب الأماكن.

فيا طالب العلم، إن الحبيب الله، والدار الجنة؟!

فمَن نظر إلى تلك الدار والأشواق وساكنيها، سهل عليه أن ينزعَ من قلبه فتيلَ الرِّياء وبذور الفخر والخيلاء، ويحبس أنفاس الكبرياء، والسبب هو قول الله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾[1].

(١) سورة القصص، الآية: (٨٣).

الغرور العلمي وأثره في العقل العلمي

(الإعجاب آفة الألباب)

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

جامع بيان العلم ١/ ٥٧١

لم يكن الغرور يومًا ظاهرةً شكليّة، بل إن يدَ الجناية لَتلاحق العقل العلمي في أخــصِّ وظائفه وتصوُّراته، فمعاركُ الاغترار لا تدور رَحاها في فلك النيَّات وعتمات الضمائر فحسب، بل تتعدى ذلك بمراحلَ متقدمة إلى القدح في الفِكر وآلته، واغتيال جمال الفكر والذِّهن فــي أعين النَّاظرين، لقد غيَّرت نفثــةُ الزَّهو مفردات الإدراك، وبدَّلت قناعات ومُسلَّمات، ولا جَرَمَ حينها أن يئول الأمر إلى شَتَات وفُتَات، وأوهام وتناقضات، وضعف في قُوى الإدراك ومحركاته.

وبإنعام النَّظر في جنايته على العقل العلمي، يتَّضح أن قُطب رحاها دائرٌ حول هذه الثلاثة:

١- ضعف القوى الإدراكية.

٢- الأوهام والتناقضات.

٣- مَيْع الأذهان.

ولا شـــك أن المغرور بعلمه قد يكون مستتمًّا لهذه الثلاث، وقد تكون حقيقة غُرُوره مقتصرة على بعض الصور دون البقية.

وهاك بيانَها:

أولًا: ضعف القوى الإدراكية.

ويظهر أثر ذلك في أمور، منها:

١- ضعف التصورات.

فجودةُ التصور وسدادُه مطلبٌ مهم للمشتغل بالعلم؛ وهذا يفيده في نظرته للمسائل والقضايا التي تعترضه، وما لم يكن الطالب جيدَ التصوُّر حسن الإدراك غربت عن أرضه شمسُ الحقائق، وتصوَّر الأمور على غير ما هي عليه، أما حسنُ التصور وسدادُه فإن ذلك دليل على صفاء القلب ونقاء الذِّهن وخلوِّه من مادة التشويش، كما أن (صحة النَّظر في الأمور نجاةٌ من الغرور)[1]، و(الحبر مَن عوَّل على سليقته القويمة وقريحته السَّليمة)[2]؛ ذلك أن نفثة الزهو تعقرُ مطايا التحقيق، وتُفسد قوى الإدراك؛ لأنه مشغول الذهن بموادِّ الفخر وصَقْلِ لسان التحديث والتسميع.

فهل يُرتجى وراءَ ذلك إلَّا ضياعُ الفكر ومَيْع الأذهان؟!

ومما يُضعف التصوُّر والعقل العلمي من آثار الغرور =استعجال النتائج وحرق مراحل الاختمار، فالزمن جزء من العلاج، والمسائل لا تنضج حتى تختمر في الذهن.

يوضِّحُه: أن المغرور تتسارع نبضاتُ قلبه مع أولى بشائر الظهور، ويقفز همُّ تعداد المُنْجَزَات إلى خاطره ليقدح زناد الاستكثار من الإنجازات السريعة، وهذا خليق بفقدان خُلُق التروِّي والتريُّث، وزيادة احتمالية الخطأ والأوْهام

(١) إحياء علوم الدين، ص١٨٠٠.

(٢) فيض القدير ١/ ٢-٣.

التصوُّريــة، فزمنُ الإنضاج والاســتواء من لوازم صحة التصــور، ولو من باب طمأنينة القلب.

٢- تبذُّل المبادئ والقِيَم.

يُعنى بـ(المبادئ والقِيَم) تلك الــمُستقاة من الشريعة، وتتابعت عليها عقول العلماء، حتى صارت قانونًا وقاعدةً تنظم سَيْر الطالب في دروب العلم.

فمثلًا، من أهم قوانين الطلب ومبادئه (الإخلاص في الطلب)، فتجد هذا المبدأ غائبًا عن واقع المغــرور عمليًّا -وإن حضر لفظُه- لتحُلَّ (المراءاة)، و(التســميع)، و(استشراف الرياسة والصدارة). ومن القِيَم الغائبة قِيمة (النفع المتعدي) أو (الإيثار)، لتحُلَّ محلَّها: (الأَثَرَة[1]).

٣- تقزُّم الفكر وانحساره.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾[2]، فترى دائرة العلوم وجدليَّتَها على الأشــخاص والــزود عنهم وتلميعِهم، فهو حديث عن الأفراد من قبيل صنيــع القُصَّاص والمُلَحِيِّين، لا صنيع الرَّاســخين الذين تدور مادَّةُ فِكرهم حول النَّظر في العلم والبحث والتحصيل والترجيح وطرق الاســتدلال وصحة الدليل وغيرها من المفردات الدوَّارة على ألســن المشتغلين بالعلم الشريف، ومن هنا يحصل نُفُوق القُوى العِلمية والعَملية.

وليس أدلَّ على نفــوق القوى وتقزُّمِ الأفكار لمن ابتُلي بهذا الداء من قول الله تعالــى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾[3]، وقوله ﷺ: **«ما ذئبانِ جائعانِ أُرســلا في غنمٍ أفســد لها من حرص المرء على المال**

(١) بمعنى حبّ النفس والأنانية.

(٢)، (٣) سورة التوبة، الآية: (٢٥).

والشَّـرف لدينه»[1]. وقـال النبي ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات: شـحٌّ مُطاع، وهـوًى مُتَّبع، وإعجابُ المرء بنفسه من الخُيلاء»[2].

ثانيًا: الأوهام والتناقضات.

ويظهر ذلك في أمور:

١- غياب صفة الحِيَاد العِلمي.

ذلك أن الغرور مُشغِل بزخارف الألفاظ ورسوم الزَّهو، فيعود ذلك عليه بتغييب صفة (الحياد العلمي)، وهذه من أقبح الأوصاف التي قد يتَّصف بها طالب العلم.

يقول شـيخ الإسلام رحمه الله: (وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين يكون سببه تارةً فساد النية؛ لما في النفوس من البغي والحسد وإرادة العلوِّ في الأرض ونحو ذلـك، فيجب لذلك ذمُّ قولِ غيرِه، أو فعلِه، أو غلبتِـه؛ ليتميَّز عليه، أو يُحب قول من يوافقه في نسبٍ أو مذهبٍ أو بلدٍ أو صداقةٍ، ونحو ذلك؛ لما في قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة، وما أكثرَ هذا من بني آدم، وهذا ظلم)[3].

٢- صرير الأوهام.

إذا عـصـفَ الـغـرورُ بـرأسِ غِـرٍّ
تـوهـمَ أن مـنـكـبَـهُ جَـنـاحُ

(١) رواه أحمد رقم (١٥٧٨٤)، والترمذي رقم (٢٣٧٦).

(٢) رواه الطبراني في الأوسـط، رقم (٥٤٥٢)، والبيهقي في شـعب الإيمـان ٢/ ٢٠٣، من حديـث أنس رضي الله عنه، و(٥٧٥٤) من حديث ابـن عمر رضي الله عنهما، دون كلمة [من الخيلاء]. وحسَّنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، رقم (٣٠٤٥).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٤٨، بتصرف يسير.

فصرير أوهام النفس تشوِّش الفكر عن النظر في الحقائق، وتشغلُهُ بالتسميع عن الاستماع، وبالمراءاة عن الرؤية؛ فالاغترار والزَّهو يمنعان كمال الاعتبار، وغبارُهما مُزكِمٌ لأنف التقدير الحقيقي، ومُعمٍ عن كمال التقييم لنفسه وغيره، فبينما هو يسبح في أوهام النفس وكبريائها ودغدغة مشاعره بالكلام المنمَّق، إذ الحقائق بخلافها، ولعل هذه مما يفسِّر سرَّ فوات التقدير الحقيقي من قبل المغترِّ بعلمه؛ حيث تصلُهُ الصورة مشوهةً أو مبتورة.

ولا شك أن أعمال الفكر والذهن لا يناسبها الغرور والتصنُّع والـمَلَق، ففيها من لذَّة الروح ونشوتها ما يُغني عن اغترار النفس أو تغرير بالغير، فإن وُجد شيءٌ من ذلك عُلم أن هذا العلم تكلُّف وتصنُّع وليس بأصيل، فالقلب المشوَّش المبتلَى بالترقُّب والتحسُّس لصرير الثناء، لا تلجُه الحقائق والعلوم، وقد رُوي عن وهب بن منبه رحمه الله أنه قال: «**إنَّ الحكمة تَسْكن القلب الوادع السَّاكن**»[1].

٣- التناقض.

ويُعنى به هنا التفاوت بين العلم والعمل، أو عدم الانقياد والعمل؛ وذلك أن المغرور يسمع مواعظ القرآن والسنة، والزواجر والترغيب والترهيب، ومع ذلك كلِّه ترى النُّفرة عن العمل والتطبيق.

لكأنه تلك الأرض الجدباء التي تحمل الخير لنفع الناس ولم ترتوِ هي بذلك الرواء العَذْب، أو تلك الشجرة الوارفة التي أظلَّت رؤوس الأنام، وأمَّا هي فقد أحرق رأسَها لفحُ الهجير.

ثالثًا: مَيْع الأذهان.

استقلال الشخصية العلمية من محدِّدات الإبداع، وبها تَبِين ذهنية العالِم ويظهر

---

(١) سنن الدارمي، باب: صيانة العلم ١/ ٤٧١، رقم (٦٠٠).

فضلُ عِلمه وعقله، إلَّا أن الشـغف والتطلع إلى لَفْتِ أنظـار الأتباع، واجتلاب عين الرِّضا يُعكر صفوها، حينها تهرُب الذهنية العلمية وتَنْمَاع الـهُوية في ساحة الأتْباع؛ فلا تسأل عن الإبداع العلمي وقتَئِذٍ؛ لأنه قد تَاهَ في مفازة الرياء والزهو والفخر.

فـ(ميعُ الأذهان) وذوبانُها نتيجة منطقية لما باشـره الطالب واستفتحه؛ لأن ذوق النفس قد تلاشـى في الْتماس المدَّاحين، وتعلَّق بإذكاء ما يجلب الفخر والعزة لا مـا يخدم العلم وقضايـاه، فأصبح القلب مفرغًا من قضيـة خالصة يحملها، وهمٌّ صادق يؤرقه إلَّا ما يخدم نوازع النفس وتوقها.

وقد قيل لبعضهم: ما الكِبْر؟ فقال: (حمقٌ لم يَدرِ صاحبُه أين يضعُه)[1].

وفي هذا المعنى يقول نور الدين الهاشمي:

قـوم لهـم سـيرة سـارت ببغيهـمُ

قـد ارْتَـدَوا بـرداء الكِبْـر والحُمق

خفَّـت رؤوسـهم إذ خـفَّ عقلهـم

لولا طيالسـهم طارت مـن العنق[2]

فما قيمة العقل إذا كان خادمًا لما يفرح قلبَ الـمغتـرِّ ويمنحه نشـوة الفخر والزهو؟ وما قيمته إذا كُرِّس لتمجيد أشخاص وتلميعهم؟

إن (الإبداع) الحقيقي النافع للأمة هو نتاج النفوس المتجردة؛ فهي تتعلم لتعمل وتُبدِع، وتبني أمجاد الأمة، ونَفعُه وبركتُه مبني على صون النَّفس عن زُبالات الهوى.

من هنا يمكننا القول بأن (الغرور العلمي) سلخٌ للهوية العِلمية، ونخرٌ في بنيان العلم، وإجهاض لرَصانة العقل؛ فالذهن اعتراه (تغيير الهوية)، وأصبح فاقدًا للمعنى

(١) عيون الأخبار ١/ ٣٧١.

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر ٣/ ٣٢٦.

والحقيقة؛ بإرسال إشارات وتلميحات مفادُها الأهلية والتمكُّن العلمي، ولا شك أن اعتيادها يجعلها (محطَّ ارتكاز) ليصبغ المارَّ بصبغتها ورغبتها.

وانظر إلى دقيق عبارة علي رضي الله عنه؛ إذ يقول: (الإعجاب آفة الألباب)، وقال غيره: (إعجاب المرء بنفسه دليلٌ على ضعف عقله)[1].

وقد أحسن علي بن ثابت إذ قال:

المـــالُ آفـتُـه الـتـبـذيـر والـنَّـهَـبُ

والعلــم آفته الإعجــابُ والغضب[2]

فالعلم لا بد له من صيانة ورعاية، وإلَّا انقلب على صاحبه وصار أداة للطغيان، وبابًا للانسلاخ؛ انسلاخِ رِدَّة، أو انسلاخِ غواية وضلالة.

وقد حُفظت حوادث متكاثرة لأُناسٍ أتاهـــم الله علمًا فلم يرعَوْا جناب العلم ويحوطوه بحصانـــة؛ إذ بهم يُبتلون بما يكدِّر صفوَ اســتقامتهم، فلم يثبتوا، فانحرف المســـار عن مقصد العلم الأعظم، فكانت الردة أو الغوايـــة والضلالة، وكان المتَّهم الأول في ذلك هو اغترارُهم بما حازوا؛ وعدم امتثالهم لشريف ما حُمِّلوا.

يقـــول اللـــه تعالـــى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[3].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧١. وانظر: الأدب الكبير والأدب الصغير، ص٣٤.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧١.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: (١٧٥، ١٧٦).

الغرور العلمي
وأثره في أبجديات الطلب

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، قال:
«ما من آدمي إلَّا في رأسه حَكَمة بيد مَلَك، فإذا تواضع قيل للمَلَك: ارفع حَكَمَته، وإذا تكبَّر قيل للمَلَك: ضعْ حَكَمَته». [رواه الطبراني].

إذا طلعت شـمسُ العلوم علـى أرض التُّطْلاب فإنها تكشـف ضباب العَين، وتُذهب رعونات النَّفْس وسـوءِ الطَّوية، وما بقاء أخلاط الجاهلية في ساحة العلم إلَّا من ضعف مادة العلم وحرارته، والتي تجلو خَبَثَ الأخلاق، أو لأمرٍ قدَّره الله وشاءه مـن فتنة ذلك العبد وأخذه بما أُخذ (بلعام)؛ إذ آتاه الله الآيات فانسـلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

وجناية الغرور على أبجديات الطلب ومبادئه تظهر في مواطن، منها:

١- ضعف المُحصَّل.

٢- فَقْدُ نفسية المتعلِّم المتواضع.

٣- ظنون الاكتفاء وضعف آلة الصبر.

وهاك بيانَها:

١- ضعف المُحَصَّل:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، قال: **«ما من آدمي إلَّا في**

رأســه حَكَمة بيد مَلَك، فإذا تواضع قيل للمَلَك: ارفع حَكَمَته، وإذا تكبَّر قيل للمَلَك: ضع حَكَمَته»[1].

فالضعف مــن أوضح آثار الغرور، وما إن يجد شـعورُ الأهلية والزهو طريقَه إلى قلب الطالب حتى ينحسِـر علمُه، وتضعف عُقَدُ عزمِـه؛ ذلك أن العلم والهوى لا يجتمعان، ومدارج الطلب لا تثبت عليها خُطى (الطاووس) بزهوه ولهوه. فالطالب وإن حصَّل علومًا إلَّا أنها هزيلة عند التحقيق؛ إذ هي من الضعف بمكان، فهي لم تدفع عنه بلايا الأخلاق ورزايا الصفات.

فلَهْوُه وغرورُه يفتَّان في جسـدِ المحصَّل؛ لأن فضل التحصيل حينها لا يقاوم الضعف الحالَّ بالانشغال بالغرور والزهو.

ومن شـواهد ذلك ما حُكي عن أحد رواة الحديث، وقد ولي القضاء، وسمع منــه الأئمة، وكان من المقدميــن، فانحطَّت رُتبتُه وأُخِّر لدخيلة السـوء عليه في هذا البــاب، بل ذكر الذهبي رحمه الله أنه كان فــي طبقة أبي حنيفة الإمام في العلم، لكن الله تعالى رفع أبا حنيفــة بالورع والعبادة، ولم ينلْ هو تلك الرفعة، فرحمهما الله[2]. فتأُخِّر رتبته من هذا الباب.

٢- فَقْدُ نفسية المتعلِّم المتواضع:

فمِن أثره في أبجديات الطلب، اسـتحالة نفسـية المغرور من نفسية المتعلِّم المتواضع إلى نفسـية المتكبر الغَرور، ولا شـك أن الحاجة قائمة إلى عالِمٍ ومتعلمٍ وباحـثٍ مُقبِلٍ على العلم بنفسـيةِ المتعلم الباحث عن العلم، لا نفسـية الـمَزهو؛

(١) رواه الطبراني في (الكبير) ١٠/ ٣٦٠، رقم (١٢٧٦٥)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٦٧٥).

(٢) تاريخ الإسلام ٩/ ١٠٢.

فالأول: قنّاص حقائق، والثاني: قمّام مرتاب.

كما أن حاجتنـــا الحقيقية في البحث عن الحقائق، أن نتـــدرع بقوة اليقين مما نحن مقبلون عليه من مجاهله ومنكراته، وأن نســـتجيش للنفس كل ما يَزَعُهَا ويكفُّها عن الشك والتردد، وأن نُقبل على دراسة أنفسنا بفضيلة المتعلم المتواضع، لا برذيلة المتعالم المتشـــامخ؛ **فإن بلاء التعلُّم والدرس هو كبرياء الحمقى وغرور ذوي العناد والمكابرة**[1].

٣- ظنون الاكتفاء وضعف آلة الصبر:

فالســـائر في طريق الطلب يحتاج إلى عدة كبيرة ودافع داخلي يوازي مشـــقة العلم وثِقله؛ كالصبر على لَأْوَاءِ التدرج، وكَرْب الالتزام بالمنهج العلمي عبر مراحله الثلاث: (التأصيل العلمي، واستكمال التكوين، والبحث العلمي)[2]، فمن لم يتدرَّع بالصبر اخترقته ســـهام الفوضى وخُرِّق عزمُه عند بشـــائر الثمار ليُحرم الاستمتاع بها يانعة نضيجة، فنبضات الفخر والتحديث والمباهاة والزهو بالمحصَّل ســـهام تخترق قلب الطالب، وتُضعف استعداده النفسي لبلوغ درجة العالمية.

ومما يُضعف آلة الصبر: بريق المدح والثناء، فلهُ سِحرُه خاصةً في فتنة الطلاب عن جادَّة الطريق، فـــلا يضعِف عُقدة الصبر مثل المدح والثنـــاء، وأنت تجد في دنيا العُمَّال أن مَـــن أُعطي الأجرة قبل العمل فإن عزيمته تضعُف، وتململُه يزداد مع أدنى مشقة، وكذلك الحال في دنيا الطلاب؛ فالمدائح قواطع العزائم.

قال سفيان رحمه الله: (من ترأَّس سريعًا أضرَّ بكثير من العلم، ومن لم يترأَّس

(١) ينظر: جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر ١/ ٢١٣.

(٢) للاطـــلاع على تفاصيلها، يُراجع كتاب: (مدارج التعلم بين التأصيل واســـتكمال التكوين) لمقيِّده.

طلب وطلب حتى بلغ)[1].

وتُضعفه أيضًا ظنـون الاكتفاء؛ فإن طالب العلم تفترض فيـه النهمة والرغبة المُلِحَّة في التحصيل والاستزادة من العلوم، فمتى ظـنَّ الكفاية وأنه لم يعُد بحاجة إلى الاستزادة، كان ذلك إيذانًا بضمور مادة العلم، والمبتلى بالغُرور يَفترضُ في نفسه العلم، ويظنُّ من نفسه الكفاية والغَناء. قال سعيد بن جبير رحمه الله: (لا يزال الرجل عالـمًا ما تعلَّم، فإذا ترك كان أجهل ما يكون)[2].

وهذه الظنون قـد تكون ظنونَ اكتفـاء بالمحصَّل، فيعمد إلـى الضغط على المحفوظ والمخزون بلا مراجعة، ومنها ظنون استغناء عن الكتب، ومجالسة العلماء، والـمُدَارَسة.

(١) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جَمْعه، لأبي هلال العسكري، ص٦٠.
(٢) الحث على طلب العلم، ص٥٩.

رحلة البؤساء

الغُرور قــد يبدأ مع المبتلى به عند الصغر والبعض في غُلَواء الطَّلَب، والصور تتفاوت فــي حقيقتها، لكنه يبدأ بنبضةٍ، ومع التكرار يتجــذَّر ليطبع بصماته على كل شاردة وواردة.

أولًا: نبضات الفخر الأولى:

(إن الخُلُق وإن كان نتيجة اعتقاد، فقد يزول الاعتقاد، ويخلفُهُ اعتقادٌ آخر، وتبقى النَّفْس لابسة للخُلُق الذي أوقعه الاعتقاد الأول)[1].

محمد الخضر حسين رحمه الله

ما هي إلَّا نبضة فخر تدقُّ في فضاء قلبٍ لَاهٍ حتى تبدأ شرارة العُجب والاغترار وحبِّ الشـــرف والرئاســـة، فتنقدح بعدها نار تحرق الأعمـــال، وتخرق كيس الزاد، وشأنُ التبِعات ألَّا تُرى قابعة في خلجات النفوس فحسب، بل تكون مصحوبةً بهنات ونفثات.

رحلة بئيسة! يستفتحها المغترُّ بنبضة قلبٍ غافل يداخلها صريرُ وساوس المدح وجرسه؛ فتشتعل نار العُجب والتصنُّع، حتى إذا شبَّت إذا بها رعود تَصُخُّ سمعَه وقلبه، فهي مَنْقَصَة تَلحقها كلُّ نقيصة وشـــرٍّ، وقد قـــال الراغب الأصفهاني رحمه الله: (كلُّ مُتَعَاطٍ لفعل من الأفعال النفســـية، فإنَّه يتقوى فيه بحسب الازدياد منه؛ إن خيرًا فخيرٌ،

(١) الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين ٥/ ٢/ ٢٣٥.

وإن شرًّا فشرٌّ)[1]. فلا يملك المَفتُون حينها إلَّا أن يتدرَّك أميالًا ويضيع في مفاوز مُهلِكة، إلَّا مَن صدق ووُفِّق للرجوع، وإلَّا فقد مَجَّهُ الأصحاب ولفظَه العُموم، وهبْ أن هؤلاء قبلوا فَيْئَتَه! فهل يرجع إليه فؤادُه نقيًّا بعد أن حالت بينهما أمواج الاغترار؟!

استطراب وسواس الثناء:

ما أجملَ نغمات المدح لمن سعى لها! فهي صرير مُطرب!

ويحضر هنا قول الأعشى:

تسمَعُ للحَلْيِ وَسْوَاسًا إذا انصرفَتْ

كَمَا استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

فهذا الصوت الصادر من الحُلي يُبهره، ويأخذ بمجامع قلبه. والحال نفسُها مع أهل البطالة والزهو من المنتسبين إلى الطلب؛ فإنَّ وَسواس المدائح وهِبَات النعوت والأوصاف تدغدغ مشاعرهم في الخيال.

ثانيًا: فيض الدعاوى:

وإذا الدَّعاوى لم تقمْ بدليلها

بالنَّص فهي على السَّفَاه دليل

الصدح بالدعاوى لسانُ حال من قلَّ مُنجزُه ونجاحه في أرض الحقائق، فأكثر الناس للعلم ادعاءً أقلُّهم علمًا.

فالدعاوى ما هي إلَّا فصلٌ من فصول تلك الرحلة في ركب البؤساء، والتي يستفتحها طالب العلم المغرور بأول نبضة من نبضات الغفلة، والتي قد ترتعد

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٥٣.

فرائصه لهول ما استشعره منذ ذلك الثناء العاطر والنَّغم المطرب، والذي جاء لينضح (جفاف) الكتمان والخمول، ويدغدغ خلجـات القلب بأحلام اليقظة، لتأتي مرحلة الدعاوى والاستحقاق، ثم الولاء والبراء على الأفكار والنشرات.

وقد عدَّ الذهبي رحمه اللـه تعالى من علامة طلب العلم لله تعالى أن الطالب (يُقْصِر من الدعاوى وحبِّ المناظرة، ومن قصد التكثُّر بعلمه، ويُزْري على نفسه)[1].

لقد كَثُرت الدعاوى بلسـان الحال والمقال بين كثير من المتسبين إلى الطلب -إلَّا من رحم الله- (دعوى العالِمية)، و(دعوى الأهلية)، و(دعوى التمكُّن العلمي)، ولـم تكن تلك الدعاوى من مفردات عصرنا، وإن كان قد شـهدها بقوة، فهي قديمة النوع، متكررة آحادها في كل زمان ومكان.

ولم تكـن دعاوى (الـمُكْنة)، و (الفتى الدرَّاك)، وفلتات الألسـن بـ(كمال الأهلية) و(النظر الدقيـق) و(الاتزان العلمي) لتظهر فجأةً بدَوِيِّها الـمُفزِع المروِّع عبر ألسـنة المغترِّين، بل سـبقتها نبضات الغفلة ودقَّات القلب بالإشـادة، وسُقيت بماء الإطراء وتعداد المنْجَزَات، فهي دركات تدنِّي بها العبد قلبًا وقالبًا، لتظهر بعدها الدعاوى عاليةً دون مواربة أو استحياء، وكأنها وسام استحقاق حصَّلها بكدِّه وجدِّه.

ومن تأمل حال أصحاب الدعـاوى عَلِمَ أن الصَّغار حليفهم، وانحطاط الرُّتبة والتأخر مآلُهـم، وكما قال الأديب الرافعي رحمه اللـه: (إذا صغرت النفس من لؤم صاحبها، كبرت بلسان صاحبها)[2].

وفي مدونة (التراجم) تجد في سـيرة أحدهم أن غـروره بالعلم والإجازات ورغبته فـي تحصيل المفاخر قد دفعه إلى الكذب والتزوير و(فيض الدعاوى)، فممَّا قيل فيه: (كان سـيئ الحال في صباه، وتزهَّد وصحبَ الفقراء وانقطع، ونَفَق سـوقُه،

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٧).

(٢) مجلة الرسالة، العدد ١٣٥، بتاريخ ٣/ ٢/ ١٩٣٦م.

وزراء الكبار، وأقبلت عليه الدنيا، وبنى رِباطًا، وكثُر أتباعه. وقع بإجازات فيها قاضي المارستان وطبقته، فكَشَطَ فيها، وأثبت في الكشط اسمه، ورماها في زيتٍ فاختفى الكشط، وبعث بها إلى ابن الجوزي وعبد الرزاق، فنقلاها له ولم يَفهما، ثم أخفى أصل ذلك، وأظهر النقل فسمع بها الطلبة اعتمادًا عليهما. وقد ألحق اسمه في أكثر من ألف جزء. بيعت كتبُه فاشتريتُها كلَّها [أي اشتراها ابن النجار]، فلقد رأيتُ من تزويره ما لم يبلغه كذّاب، فلا تحلُّ الرواية عنه)[1].

* * *

وقع في ترجمة (أبي الخطاب عمر بن الحسن الكلبي) أنه مع حفظه ومعرفته قد عُرف بكثرة الدعاوى والمجازفة في العلم.

قال ابن نُقْطة: كان موصوفًا بالمعرفة والفضل ولم أَرَه، إلّا أنه كان يدَّعي أشياء لا حقيقة لها، ذكر لي أبو القاسم بن عبد السلام، قال: نزل عندنا ابن دِحْيَةَ، فكان يقول: أحفظ (صحيح مسلم) و(الترمذي). قال: فأخذت خمسة أحاديث من الترمذي، وخمسة من (المسند) وخمسة من الموضوعات، فجعلتها في جزء، ثم عرضت عليه حديثًا من الترمذي، فقال: ليس بصحيح، وآخر، فقال: لا أعرفه، ولم يعرف منها شيئًا!

وقال ابن واصل الحموي: كان ابن دحية -مع فرط معرفته بالحديث وحفظه الكثير له- متهمًا بالمجازفة في النقل، وبلغ ذلك الملك الكامل، فأمره أن يعلق شيئًا على كتاب الشهاب، فعلق كتابًا تكلَّم فيه على أحاديثه وأسانيده، فلمَّا وقف الكامل على ذلك، خلاه أيامًا، وقال: ضاع ذاك الكتاب، فعلِّق لي مثله. ففعل، فجاء الثاني فيه مناقضة للأول، فعَلِمَ السلطان صحَّة ما قيل عنه، ونزلت مرتبته عنده، وعزله من دار الحديث التي أنشأها آخرًا، وولَّاها أخاه أبا عمرو.

(١) تاريخ الإسلام ٤٣/ ٥٠.

وقـــال الضياء: لقيته بأصبهان، ولم أســـمع منه، ولم يُعجبنـــي حاله؛ كان كثيرَ الوقيعة في الأئمة.

ولابن عُنَيْن فيه:

دحـيـــة لـــم يـعـقــب فـلــم تـعـتــزي
إلـــيـــه بـــالـــبـــهـــتـــان والإفـــــك

مـــا صـــحَّ عـنـد الـنـــاس شـــيء سـوى
أنـــــك مـــــن كـــلـــب بـــلا شـــــك[1]

ثالثًا: الولاء والبراء على الأفكار:

(وطالب الرئاسة -ولو بالباطل- تُرضيه الكلمة التي فيها تعظيمه، وإن كانت باطلًا، وتُغضبه الكلمة التي فيها ذَمُّه وإن كانت حقًّا)[2].

ابن تيمية رحمه الله

المحطة الثالثة في رحلة البؤســـاء: إكرام وثناء على الموافق، وأذى للمخالف والمتجاهل، فالغُرُور إذا تمكَّنت أركانه استولى على الجسد فلا يرى إلَّا بمنظارٍ ضيِّق يعكس كبرياءه وفضوله، لَيُطلِق حينها أزِمَّة الثناء على الموافِق، ويُعمل سياط قَلَمه في المخالـــف. فالغرور لا يُبقِي لفاضلٍ فضلَه ومكانتـــه؛ إذ الولاء والبراء قد أصبح على ما يُشبع المرض النفسي، ويسُدُّ نَهمة الهوس المستشري في العروق.

ومن عجيب الأمر أن هـــذه القاعدة -وهي الولاء والبـــراء على الأقوال- لو عرضت على المغرور لانتقص فاعلها وشغَّب عليه، وهو يُعمِلُها بلا حياء أو مواربة،

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٩١- ٣٩٢، باختصار.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ٥٩٩.

مدَّعيًا بلسان حاله قداسة أقواله.

إن (الغـرور) و(الأذى) متلازمان؛ فما إن يتسـرب حتى تتمكَّـن معه عَادِيَةُ الأذى، فالغـرور مُحْوِجٌ إلى إعمال الولاء والبراء ولا بـدَّ. يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: (ما من أحدٍ أحبَّ الرِّياسة إلَّا حَسَدَ، وبَغى، وتتبَّعَ عيوب الناس، وكرِه أن يُذكر أحدٌ بخير)(١).

وما عليـه ألَّا يؤذي الآخرين، لكنـه ضيِّقُ الأفق؛ فيجـرِّح، ويجهِّل، ويغمط ويتنكَّر، ويهزأ ويسـخر، والأصل أنه لا يحلُّ الـهُزْءُ والسُّـخرة بأحد، وأصل هذا إعجابُ المرء بنفسـه وازدراء غيره، وكان يقال: من العُجب أن ترى لنفسك الفضل على الناس، وتمقتهم ولا تمقت نفسـك(٢). ولعل هـذا الآخر أخلصُ ضميرًا وأنقى قلبًـا ممن هو على ضد صفته؛ فيظلم نفسـه بتحقير من وقَّره الله، والاسـتهزاء بمن عظَّمـه الله. ولقد بلغ بالسـلف إفراط توقِّيهم وتصوُّنهم من ذلـك أن قال عمرو بن شُرحبيل: (لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا فضحكت منه لخشيتُ أصنع مثل الذي صنع). وعن عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه: (البلاء مُوَكَّل بالقول، لو سخرتُ من كلب لخشيتُ أن أُحوَّل كلبًا)(٣).

رابعًا: الطغيان والاحتراب العلمي:

للعلم طغيان كما للغنى
والعلم بالطغيان لا ينفع(٤)

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢٨٦.

(٢) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطّال ٩/ ٢٣٩.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/ ٣٨٧.

(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٤/ ١٩٤.

بعد أن تمكَّنت تلك الجذور الخفيَّة وسُقيت بماء الفخر، تطوَّر أمرها إلى ولاءٍ وبراءٍ على الأقوال والمواقف، ثم تكون الانتكاسة المُردِيَة عن مَقصد العلم الشريف، ليُشـــهره ســـلاحًا طاغيًا في الأندية؛ لينتقل من عالَم الفكر والمحـــراب إلى حَلبات التَّراشُق والاحتراب.

وســـرُّ ذلك أن المغترَّ يُحمل في مُخبَّآت صدره خبائث، وقد طُبع على صناعة المخاتلة والاحتيال، فيحتفظ في ســـيرته جهده، ويتحاشـــى بظاهر عِرضه أن يلوَّث بفضيحة، فإذا قبض بيده على سُلطةٍ، خلع ثوب عِفَّته المستعار، وغشي من المخازي ما يجعله هدفًا لسِهام الطاعنين[1].

والأمر كما قال أبو العتاهية:

حـــبُّ الرئاســـة أَطغى مَن علـــى الأرض

حتى بَغَى بعضُهم فيها على بعض[2]

* * *

وقد اســـتعمل بعض العلماء هـــذا المصطلح [طغيان العلـــم] قديمًا، فها هو يوســـف بن الحسين الرَّازي، رحمه الله، يحذر منه، فيقول: (يُنجيك مِن طُغيان العلم العبادة)[3].

ومـــن عبارة الرَّازي رحمـــه الله آنفة الذكر، تعلـــم أن المصروف عن محراب التعبد والتألُّه حالٌّ بوَادِي الطغيان. وصدق، فأيٌّ وئام وســـلام أو تحقيق يُرتجى ممَّن نصب العلم حربًا بينه وبين مخالفيه؟!

(١) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين ٥/ ٢/ ٢٥٠.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧١.

(٣) حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٩.

كأنه يرى سـيف الاحتراب أقربَ إلى يده وقلبه من قلـم البحث والتَّحقيق! أَسَـلَاطة اللسـان أنكى في المخالف من اعتمال الفكر في نقـض الخطأ وتصويبه وصولًا إلى الحق؟!

ومَـن تأمَّل أمرَ قارون عَلِـمَ أن العلم قد يقود إلى البغـي، كالمال تمامًا؛ لأن نَفْثَـةَ الزهو والعُجب واحدة وإن تعدَّدت صُوَرُها وتنوَّعت مادَّتُها؛ كَمَالٍ، أو مَنْصبٍ، أو عِلمٍ وغيرها.

قال ابن عطية رحمه الله: (وهو [قارون] بإجماعٍ رجلٌ من بني إسـرائيل كان ممن آمن بموسى، وحفظ التوراة، وكان مِن أقرأ الناس لها، وكان عند موسى من عباد المؤمنين، ثم إنه لَحِقَه الزهوُ والإعجاب فبَغَى على قومه بأنواع من البَغي)[1].

* * *

ومن جميل اللَّفتات مقارنةٌ عقَدَها ابن القيم رحمه الله بينَ حال أهل التواضع وحال أهل الطغيان والاحتراب، فيقول رحمه الله:

(وتأمَّل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فَرْط تواضعها واستصغارها لنفسها [أي أم المؤمنين عائشـة رضي الله عنها]؛ حيث قالت: (ولَشأني في نفسي كان أحقرَ مـن أن يتكلم الله فيَّ بوحيٍ يُتلـى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسـول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها)[2]. فهذه صِدِّيقة الأمة وأم المؤمنين وحِبُّ رسـول الله ﷺ، تعلم أنها بريئـة مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون لها مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبويها، وإلى رسول الله ﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.

(٢) جزء من حديث الإفك الطويل، رواه البخاري رقم (٤٤٧٣)، ومسلم (٢٧٧٠)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فما ظنُّك بمن قد صام يومًا أو يومين أو شـــهرًا أو شهرين، وقام ليلة أو ليلتين، وظهر عليه شـــيء من الأحـــوال، فلاحَظـــوا أنفسَـــهم بِعَيْن اســـتحقاق الكرامات والمكاشفات والمخاطبات والمنازلات وإجابة الدعوات، وأنهم ممن يُتَبرَّكُ بلقائهم، ويُغتنم صالح دعائهم، وأنهم يَجِبُ على النـــاس احترامهم، وتعظيمهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، فيتمســـح بأثوابهم، ويقبّل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله عزَّ وجلَّ بالمكانة التي ينتقم لهم لأجلها ممن تنقَّصهم في الحال، وأن يؤخذ ممَّن أســـاء الأدب عليهم من غير إمهال، وأن إساءة الأدب عليهم ذنبٌ لا يكفِّره شيء إلَّا رضاهم، ولو كان هذا من وراء كفاية لهان ولكن من وراء تخلُّف.

وهذه الحماقات والرُّعونات نتائج الجهل الصميم، والعقل غير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدر من جاهل مُعجَب بنفســـه، غافلٍ عن جُرمه وذنوبه، مغترٍّ بإمهال الله تعالى له عن أخذه بمـــا هو فيه من الكِبر والإزراء على مَنْ لعلـــه عند الله تعالى خيرٌ منه)[1].

(١) جِلاء الأفهام، ص٢٦٧– ٢٦٨.

أسباب الغرور العلمي

لم تكن مخايل الزهو والاغترار لتظهر طفرة؛
فلها أسبابٌ تفسرها؛ يُباشرها العبد، أو خارجة عنه،
أنبتت بذرتها تربةٌ قابلة وجبلةٌ مُتشبِّعة

(١) فتح أبواب المدح والثناء:

وألـبَـسْـتَـنـي مـن فـنـون الـمـديـح
بـرودًا بهـا الزَّهـو قد طـاب لي[1]

أبواب المـدح والثناء نوافذ يعبر مـن خلالها الممدوح إلـى مرحلة الغرور والزَّهو؛ فإنَّ المـدح وافِدُ الكبر، كما قال ابن قتيبة[2]، وكثـرة الإطراء تُحدِثُ الزَّهو وتُدني من الغِرة[3]؛ والاعتياد يوطِّن النفس على التَّشبُّع بصنعة كذب، ويُعقب الفتور، حتى وإن كان المادح عاميًّا معروفًا تساهلُه في كيل المدائح، يقول ابن الجوزي رحمه اللـه: (والمحنة العظمى مدائحُ العوام، فكم غرَّت؟! كما قال علي رضي الله عنه: ما أبقى خفق النعال وراء الحمقى من عقولهم شيئًا)[4]. وأصل قول علي رضي الله عنه، أنه خرج يومًا من المسـجد، فاتَّبعه الناس، فالْتفت إليهم، وقال: أي قلبٍ يصلح على

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٢/ ٣٥١.
(٢) عيون الأخبار ١/ ٢٧١.
(٣) التذكرة الحمدونية ١/ ٣١٨.
(٤) صيد الخاطر، ص٧٨.

هذا؟ ثم قال: (خفق النعال مُفسدة لقلوب نَوْكَى الرجال)[1].

وإذا لم يكن المدح والثناء مستلزمًا للزهو والغرور، فلماذا قال ﷺ: «ولا فخر»[2] في معرض تعداد الفضائل، بعد قوله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»**؟!

سرُّ ذلك أن تعداد الفضائل والمنجزات مستلزم في أغلب أحواله للغرور والفخر والزهو، وهو منظور بعين التهمة.

وفي الحديث جواز التحدُّث بنعمة الله على عبده؛ إذا أُمن بها العُجب والفخر، وخلص من الكبر، كما قال -عليه السلام-: (ولا فخر) في هذا الحديث، وهو هنا في حق النبي ﷺ واجبُ تبليغٍ لما يجب أن تعتقده أمته، وتدين لله به في حقه وطاعته[3].

* * *

والنُّكتة في كون المدح والثناء بابًا إلى الغُرور، أن العبد يُخدع في تقدير حقيقة رُتبته العلمية، وكذلك منزلته في الديانة وموضعه في محراب التعبُّد؛ فالفكر قد تَشوَّش بدخول مادة الثناء إلى القلب، فأفضت إلى بَطَالَة وانقطاع عن العمل، وهذا مجرَّبٌ.

وإذا تأملت قوله ﷺ: **«ويحك! قطعت عنق صاحبك»**[4]. وجدت هذه المعاني حاضرة؛ فالنبي ﷺ أفاد أن المدح كقطع العنق. وقد بوَّب عليه النووي رحمه الله

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧٤.

(٢) رواه الترمذي (٣١٤٨).

(٣) إكمال المعلم ٧/ ٢٣٧.

(٤) رواه البخاري رقم (٢٦٦٢)، ومسلم رقم (٣٠٠٠).

بقولــه: (باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراطٌ وخِيف منه فتنة على الممدوح)[1].

وقال النبي ﷺ: «إيَّاكم والتمادح -وفي رواية المدح- فإنه الذبح»[2].

يقــول الحجاوي رحمه الله: (وأمَّا الممــدوح فإحدى الآفتين فيه: أن يحدث فيه كِبرًا وعجبًا، وهمــا مهلكان... الثانية: أن يفرح، فيفتُــر عن العمل، ويَرضى عن نفسه)[3].

* * *

قد يرى أهل العلم تزكية طالب علم في مقدمات الكتب أو الثناء على أبحاثهم، فيجب الحيطة والحذر ممن تظهر عليهم مخايل الزهو والتطاول والاحتراب العلمي، والواجب ألَّا يُزكى هؤلاء من قبل العلماء والقدوة؛ لأنه صبٌّ لمادة الاحتراق ليزداد اشــتعالًا وفتنة لنفســه وللأتباع، وكم من مغرور مغمور أضحى بتزكية العلماء نجمًا ففَتَن وفُتِن.

ومما ينبغي أن يتنبَّه له المطَّلع أن يفرِّق بين نوعين من التزكية:

الأولى: تزكية الباحثين والمميزين من قِبل أهل العلم في مقدمات الكتب.

والثانية: تزكية أعيان علماء العصر على معين.

والواقع مُلجئ إلى التفريق بين هذين النوعين.

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٦.

(٢) رواه أحمد في مسنده رقم (١٦٨٨٣)، و(١٦٩٤٩)، و(١٦٩٥٠)، وابن ماجه في سننه رقم (٣٧٤٣)، من حديــث معاوية رضي الله عنه. وصحَّحه الألباني في (صحيح الجامع) رقم (٢٦٧٤).

(٣) (شرح منظومة الآداب الشــرعية)، ص٨٧- ٨٨. ونحوه أيضًا المناوي في (التيسير بشرح الجامع الصغير) ١/ ٤٠٦.

وكذلك ينبغي أن يفرِّق بين نوعين من الطلاب:

طالبٍ: يلتمس الطمأنينة على ما عنده من علمٍ ونظر؛ بالتماس تقديم أهل العلم والخبرة لأبحاثه ومؤلفاته، فهذه قد تكون من جنس شهادات العلماء قديمًا لإخوانهم وطلَّابهم باكتمال آلته وأهليته للإفتاء ونحوها من المهام التي يؤهله إليها علمُه ودرجتُه.

وآخر: لا يشغل بالَه إلَّا صوتُ المدائح وعبارات الثناء والتزكية، فتكون هذه التزكيات من صَبِّ الزيت على النَّار.

* * *

يا طالب الرقي والمدارج! إن الولع بالمدح والثناء ثُلمةٌ في جدار الصدق.

وهاك نصيحةً نافعةً سطَّرها الأديب ابن المقفع، إذ يقول: (وإيَّاكَ أن يكون من شأنك حبُّ المدح والتزكية، وأن يُعرف ذلك منك! فتكون ثُلمة من الثُّلم يتقحمون عليك منها، وبابًا يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منك لها، واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبُّه المدحَ هو الذي يحمله على ردِّه، فإن الرادَّ له محمود، والقابل له مَعيب)[1].

(٢) موت العلماء وغياب دورهم:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناسُ رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلوا**»[2].

(١) الأدب الكبير والأدب الصغير، ص١٨ - ١٩، بتصرف يسير.
(٢) رواه البخاري رقم (١٠٠)، ومسلم رقم (٢٦٧٣).

إذا مات العالم تأهَّب الجُهَّال للجلوس في مقامه؛ لأن الجو قد خلا، وليس من رادعٍ ينفي الخطأ ويُزيِّف الدعاوى.

وقد قال طَرَفَةُ بن العبد:

يـا لـك مـن قُـبَّـرةٍ بـمَـعْـمَـرِ!
خـلا لـك الجـو فبِيضـي واصْفري

قـد رفـع الـفـخُّ، فـمـاذا تـحـذري؟
ونـقِّـري مـا شـئـتِ أن تُـنـقِّـري

قـد ذهـب الـصـيـادُ عـنـكِ فابشري
لا بد يومًـا أن تُصـادي فاصبري[1]

(٣) افتقاد المعلم الناصح:

لا شك أن المعلم مَعبرٌ هام لتسـرُّب أنماط وأخلاق إلى المتعلم شاء أم أبى، وهذا يكشف سرَّ إصرار السلف على اختيار المعلم صاحب الديانة والمُكنة؛ إذ فساد الأصل مستلزم لفساد الفرع، وفسادُ الدليل مسـتلزمٌ أيضًا لفساد المدلول. والتاريخ شاهد.

فكم من مبتلى بـ(الزهو)، وعند التفتيش تُشمُّ منه أنفاسُ أستاذه، فإذا هي قبضةٌ من أثَرِه، ونفثةٌ من نفثاته.

(١) (معمر) مكان نصب فيه الشـاعر فخًا لصيد الطيور لكنه لم يفلح؛ لأن قبرة واحدة لم تسقط في الفخ، ولما أزال فخه حطت الطيور على الحبِّ الذي وضع عنـده، فقال عندها هذه الأبيات. والأبيات في ديوان طرفة بن العبد، ص٤٩.

لذا، فإن الفرار متعينٌ قبل قرار تلك الأخلاق في أبجديات عقله ومسلَّماته؛ لئلا يتسلسل امتزاج العلوم بنفخة الزهو؛ لأن الخروج حينها عنه سيكون سلخًا للنفس عن مألوفها ومُعتادها، وسيكون من أعسر الأشياء؛ لكونها صادفت محلًّا خاويًا أولًا فتشبعت به؛ فالطالب قد يظنُّ حينها أنه لا سياسة للعلم إلَّا ما رُبِّي عليه، ولا ارتياض إلَّا بهذه الأنماط!!

وانظر إلى هذه الخلاصة التي تُنبئ عمَّا ندندن حوله:

يقول ابن الخشاب: (قرأت على عبد الرحيم بن الإخوة ثلاثة أجزاء من أول كتاب (زاد الرفاق) للأبِيوَرْدي، وهذا الكتاب -نَعَم والله- باردُ الوضع، مشوبٌ أدبُه بفضولٍ من علوم لا تعدُّ في الفضل، دالَّة على أن الأبِيوَرْدي كان مُمخرقًا مُحبًّا لأن يُرى بعينِ مُفْتَنٍّ، مُتشبعًا بما لم يُعطَ)[1].

(٤) حبُّ الشهرة والشرف والذِّكر:

حبُّ الشهرة يفتك بإخلاص العبد ونزاهة قصده واستقامته على صراط العلم، ذلك أن لها شروطًا وطرائق ومكملات لا بد من بذلها والجدِّ في أسبابها، في أسبابها لنيلها، مما قد يعارض قانون الطلب أو قانون العمل والديانة ليخدش إخلاص العبد وصدقه، ولا شك أن حبَّ الشهرة من أقوى أسباب الزهو والاغترار، فلا تجد خامل الذكر مزهوًّا إلَّا وهو يودُّ أن لو اشتَهَر أمرُه وعلا صِيته، وقد ترجم الذهبي رحمه الله لأحدهم فقال: (وكان يقرأ في التراويح بالشواذِّ رغبةً في الشهرة)[2]. فحبُّ الشهرة شغل المغرور الآكد حتى إن الأمر لَيبلغ به أنه (لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخُمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، وحُبس مع ذلك في سجن وقُيِّد بالسلاسل

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٩١.

(٢) تاريخ الإسلام ٤٥/ ٥٣.

لَاحتال في هدم السجن وحلِّ السلاسل، حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره)[1].

ومن جميل قول إبراهيم بن أدهم رحمه الله: (ما صَدَقَ اللهَ عبدٌ أحبَّ الشهرةَ)[2]. وعقَّب الذهبي قائلاً: (علامة المخلص الذي قد يحب شهرة، ولا يشعر بها، أنه إذا عوتب في ذلك، لا يَحْرَدُ ولا يبرئ نفسه، بل يعترف، ويقول: رحم الله مَن أهدى إليَّ عيوبي، ولا يكن مُعجَبًا بنفسه؛ لا يشعر بعيوبها، بل لا يشعر أنه لا يشعر، فإن هذا داء مزمن)[3].

وفي سِيَر السلف تجدهم مع جدِّهم في الطلب وحرصهم على نشر الهدى وتعليمه لم يسعوا لنيل الشهرة، بل كانوا عنها مباعِدِين ولها مُجافين.

وإذا أنعم الله على عبده بإدراك (حقيقة العلم) والوقوف على حلاوته ولذَّته طُمست عيون التعلق بالشهرة من قلبه، ودفعها إذا خطرت له؛ فأصحاب المراتب العليا في العلم والدِّين لا يستهويهم بريقُها الخادع، ولا يحرف سَيْرَهم نعيقُ أصحابها. يقول ابن رجب رحمه الله: (وعلامة هذا العلم الذي لا ينفع، أن يُكسِبَ صاحبَه الزَّهوَ والفخر والخيلاء، وطلب العلوِّ والرفعة في الدنيا، والمنافسة فيها، وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس إليه)[4].

ومما يزيد الأمر بلاءً أن التعلق بالشهرة قد يُكتَسى بثوب الحُسن الشرعي ليأخذ صورةً تُحسِّنه؛ خداعًا للنفس وتغريرًا بها، فإن بعض المتسببين إلى العلم -كما قال أبو حامد الغزالي رحمه الله- قد (يُذهل عن المراقبة للخفايا والتفقُّد للدفائن؛ فتراه

(١) إحياء علوم الدين، ص١٣٠٩.

(٢) التاريخ الكبير ٤/ ٣٦٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٩٣.

(٤) فضل علم السلف، ص٨٠.

يســهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشــار الصِّيت في الأطراف، وكثرة الرحلــة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقديم له في المهمات، وإيثاره في الأغراض، والاجتماع حوله للاســتفادة والتلذُّذ بحُسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيــراد، والتمتع بتحريك الرؤوس إلى كلامه، والبكاء عليه والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمســتفيدين، والســرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين ســائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافَّة المقبلين على الدنيا، لا عن تفجُّع بمصيبة الدِّين ولكن عن إدلالٍ بالتمييز واعتداد بالتخصيص)[1].

ومن جميل ما نبَّه إليه الإمام الذهبي رحمه الله، قوله: (فإن خاف ممن يشغِّب عليه من الفقهاء فلْيتكتَّم بها ولا يتراءى بفعلها، فربما أعجبته نفسُــه، وأحبَّ الظهور، فيعاقب، ويدخل عليه الداخل من نفسه، فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فيُســلِّطُ الله عليه من يُؤذيه لسُوء قصده، وحُبِّه للرئاســة الدينية، فهذا داءٌ خفي سارٍ في نفوس الفقهاء، كما أنه داء ســارٍ في نفوس المُنفِقِين من الأغنياء وأرباب الوقوف والتُّرب المزخرفة، وهو داء خفي يَســري في نُفوس الجنــد والأمراء والمجاهدين. فمن طلب العلم للعمل كســره العلم، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامق، واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العُجْب، ومقتته الأنفس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾[2]؛ أي دسَّســها بالفجور والمعصية)[3].

(١) إحياء علوم الدين، ص١٣١٠.
(٢) سورة الشمس، الآيتان: (٩، ١٠).
(٣) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٩١- ١٩٢، باختصار.

(٥) الأَثَرة وحبُّ النفس:

تُذكي الغُرورَ الأَثَرةُ وحبُّ النفس واختصاصها بالعطاء والنوال، ورؤية الأهلية لما حَازَه. فإن كان الاهتداء إلى مَرجعٍ يحلُّ إشكالًا حجبَه وكتمَه ليتفرَّد به، إلَّا إذا كان نشرُه مُحققًا لمقصد التسـميع والعُجب في مجالس تُعين على ذلك، وإلَّا فإن الأثرة هي الشعار والدثار. وإن كان علمًا أو آلة تحتاج إلى مِراسٍ وتدريبٍ ومهارةٍ لم يعطها إلَّا بشروط يضمن معها غروره حتى يبذلها إن فعل.

ذكـر ابن النجار أحدهم، فقال: (تكبَّر وتجبَّـر، فأخذه الله، وعُزل عن القضاء وغيره، وحُبس وعوقب وصودر على أموال احتقبها[١] من الحرام والغلول... وعنده ظلمٌ، وحبٌّ للدنيا، وحرصٌ على الجاه، وكَلَبٌ على الحطام)[٢].

* * *

وقع في (سؤالات أبي حيان لأبي علي مسكويه): ما سبب من يدَّعى العلم وهو يعلم أنـه لا علمَ عنده؟ وما الذي يحمله على الدعوى، ويُدنيه من المكابرة ويُحوجه إلى السَّفَه والمهاترة؟

فقال أبو علي مسـكويه: سـببُ ذلك محبَّةُ الإنسان نفسَـه وشعورَه بموضع الفضيلة، فهو لأجل المحبة يدَّعى لها ما ليس لها؛ لأن صورة النفس التي بها تَحسُـن وعليها تحصل ومن أجلها تسعد -هي العلوم والمعارف، وإذا عريت منها أو من جُلِّها حصلت له من المقابح ووجوه الشقاء بحسب ما يفوتها من ذلك. ومن شأن المحبة أن تغطي المسـاوئ وتُظهر المحاسن إن كانت موجودة وتدَّعيها إن كانت معدومة، فإن كان هذا من فعل المحبَّة معلومًا، وكانـت النفس محبوبة لا محالة، عَرَضَ لصاحبها

(١) أي جمعها وادَّخرها.

(٢) نقله عنه الذهبي في (السير) ٢٣/ ٣٤٥.

عارضُ المحبة فلمَ يُنكرُ ادِّعاءَ الإنســان لها المعارفَ التي هي فضائلُها ومحاســنها، وإن لم يكن عندها شيء من ذلك[1]؟

(٦) التحاسُد:

يُثير الغرورَ حسدٌ لمن رفعه الله أو وهبه علمًا. فالحاسد: مُلاحِظٌ للمِنَن والنِّعَم علــى المخلوقين، ويتمني زوالَها وحصولها له، فكلَّمــا تجدَّدت نِعَمُ الله على عبيده توالت الــهُموم على قلبه، فيضيق ذَرْعًا ويغتمُّ، ويَهِيم قلبُه وَلَهًا بتلك النِّعَم المفقودة، والتي ودَّلو حازها دون غيره، ومع بَصِيصِ علمٍ يرى الحاسد أنْ قد حاز الدنيا، ومَلَكَ ناصيتَها، ليصدح بدعوى (أنا خيرٌ منه)، فيُعلي من قدرِ نفسه. يقول الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2].

(٧) صحبةُ المغرورين وترك الأكفاء:

عن أبي قِلَابَةَ عن أبي الدرداء قال: (مِن فقه المرء مدخله وممشــاه وإِلفُه. قال أبو قلابة: ألَا ترى إلى قول الشاعر:

عـن الـمـرء لا تسأل وأَبْــصِــرْ قرينَه

فــإن القريــن بالمقــارن مقتــدي[3]

ليســت الصحبة هنا محض اتِّخاذ القريــن، وإنما مطلــق الملازمة، فيندرج فيها التعلُّمُ عليهم ومتابعة مقالاتهم ونشــراتهم، والنَّظر في كتبهم؛ فإن (أدب الســوء دسَّاس) كما قيل.

(١) الهوامل والشوامل، ص٤٣، ٤٤.

(٢) سورة النساء، الآية: (٥٤).

(٣) رواه ابن الأعرابي في (معجمه)، ٢/ ٦٤٢، رقم (١٢٧٧).

وقد اعتبر الماوردي رحمه الله من أسباب الوقوع في بلاء الكِبر (قِلَّة المخالطة للأَكْفَاء)[1]. وقال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله: (ما صحبني متكبرٌ قط إلَّا اعتراني داؤه؛ لأنه يتكبَّر، فإذا تكبر غضبت، فإذا غضبت أدَّاني الغضب إلى الكبر، فإذا داؤه قد اعتراني)[2].

ومن هنا جاءت فضيلة الاطلاع على مدونة الأكفاء من الراسخين من أهل العلم الكبار؛ فإنها تعطي دروسًا في التواضع ونبذ الخُيلاء ودفع بلاء الغرور العلمي.

أمَّا الاطلاع على نشرات أهل الغرور العلمي والإفلاس، فهو بابٌ للعَطَب وإفسادٌ للذوق العلمي، ومجلبة لمساوئ الأخلاق؛ فنتاج المُبطل لا يكون رائقًا، إذ هو مَشوبٌ بفساد.

(١) أدب الدنيا والدين، ص٢٨٨.

(٢) تاريخ دمشق ٧٤/ ٢٢٧.

أنواع الغرور العلمي

(الزهو بالمحصَّل) و(الاغترار بالـــمُنجَز) قاعدة الـمُغترّ، ودائرتُه التي حَوْلَها يَحوم، وذلك بنِسَـــبٍ متفاوتة؛ فتكتمل حقيقتها عنـــد بعضهم، والبعض يحمل نوعًا، والآخر غارق في أضرُبِه وأشكاله؛ فالماهيَّةُ تتفاوت قلبًا وقالبًا.

(١) غرور الإنجاز العلمي:

إن رؤية الإنجاز وتعظيمه مدرجة الاغترار، كما أنه لا يغترُّ بمنجزاته إلَّا الغُمْر[1] قليلُ المعرفة بقدر الســابق وقدر نفسه، أو مزهوٌّ يفتخر بأدنى شيء حصَّله؛ فالاغترار صنعةُ الوضيع.

ومن صُـــوَرِ المبالغة في رؤية الإنجاز العلمي تكــرارُ ذِكر المؤلَّفات والإنتاج العلمي في المجالس بداعٍ وغير داع.

ومن المُضحِكات المُبكيات أنِّي قابلت أحدَ المبرِّزين في علمٍ من علوم الآلة، فإذا هو شـــغوفٌ بتعداد منجزاته، وآثاره، وظهوره الإعلامي، ومشاركاته بالمجلات، والمناصب... إلخ، بل إنه خَشي أن أنســاها، فأرسلها إليَّ عبر (البريد الإلكتروني)، ولم أطلبها منه. ولا أظنني أولَ ضحاياه أو آخرهم!

ومن صُوَرِه: الفخر بما فتح الله على العبد من الترجيحات أو حلِّ الـمُشْكلات؛

(١) الغُمْــر: الذي لم يُجرب الأمور. والجمع أغمار. وأمَّا الغَمْر فهو: الجواد، وسُــمي الرجل غَمْرًا، إذا كان واسعَ العطاء كثير الخير. انظر: جمهرة اللغة لابن دريد ٢/ ٧٨١.

فمن العبارات التي قد يُشم فيها ذلك -إلَّا بنوعِ تأويلٍ- قول بعضهم: (لم أسبق إليه)، (لن تجد هذه التحريرات عند غيري)، وهذا العبارات إذا لم تُصطحب بافتقار وخضوع، واستعمال لعبارات التمريض والأدب فهي مؤشر إلى غرور بالمُحَصَّل، فتحتاج إلى وقفةٍ بل وقفات.

يا طالب الرقي والمدارج!

إذا لم تحط أعمالك ومنجزاتك بسياجٍ من الإخلاص والتواضع فلن تفلح، ولن يحصل المطلوب، فليتك لم تتعلم هذا العلم ولا ألَّفت هذه الكتبَ التي كانت عليك وبالًا، وجرَّت عليك ريحَ الكَدَر.

والأمر قد يكون كما قال مطرِّف بن عبد الله رحمه الله: (لَأن أبيت نائمًا، وأُصبح نادمًا، أحبُّ إليَّ من أن أبيت قائمًا وأصبح مُعجبًا). وقد عقَّب الذهبي عليه قائلًا: (قلت: لا أفلح -والله- مَن زكَّى نفسه، أو أعجبته)[1].

وأهمس إليك صاحبي بهذه العبارة:

(استصغارُك نِعَمَك يُكبرها عند ذوى العقول، وستُرك لها نَشْرٌ لها عندهم؛ فانشرها بسترها، وكبرها باستصغارها)[2].

وقد قال الشافعي رحمه الله: (أرفعُ الناس قدرًا مَن لا يرى قدرَه، وأكثرُ الناس فضلًا مَن لا يرى فضله)[3].

ترجم الصَّفَديُّ لابن القلاس المعروف بـ(ابن مَلاوي)، فأشار إلى غُروره بنفسه وجودة شِعره، فقال: (رجلٌ تائهٌ، مُعجبٌ بنفسه وجودة شعره، وهو خارج

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩٠.

(٢) رسالة المعاش والمعاد (ضمن رسائل الجاحظ) ١/ ١٣١.

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٢٠١.

الشــكل والمعنى والحديــث، ذو طبعٍ جافٍ ورَبْع عافٍ[1]، وربمــا ندر له الجيد من شعره)[2].

- **الفخر بالبحوث والتآليف:**

فكم من مزهــوٍّ قد اتَّخذ أبحاثــه ومؤلَّفاته جناحًا للشــرف، ومِفتاحًا لمنائح التعظيم، ففَقَد نعمة الإخلاص، وتنكَّب طريق السَّلف بزوغان الطرف إلى متاع الحياة الدنيا، وعدم احتساب النيَّة والأجر من ربِّ العالمين سبحانه.

ولا شــكَّ أن من علامات الغرور العلمي الاســتطارة بالمؤلفات وبحُسنها؛ (يريد به استطارة اســمه بــحُسن التصنيف، فلو ادَّعى مُدَّعٍ تصنيفَه ومحا عنه اسمه ونســبه إلى نفسه ثَقُل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى الــمُصنِّف، والله يعلم بأنه هو المصنف لا مَن ادَّعاه، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفســه إمَّا صريحًا بالدعاوى الطويلــة العريضة، وإمَّا ضمنًا بالطعن في غيره، ليســتبين مِن طَعْنِه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علمًا، ولقد كان في غُنية عن الطعن فيه)[3].

(٢) غرور اللقب العلمي:

اللقب العلمي من (أســتاذية) و(مشــيخة) وغيرها، وتصديره في المكاتبات وغيرها حقٌّ أدبيٌّ للمقدَّم له، لكن التزامه والسُّخط على مَن يترك رُسومه والتنبيه عليه قد يَشِي بجانبٍ من الزَّهو بتحصيل تلك الألقاب العلمية.

ومن الظواهر التي اشــتَهَرت بين طلَّاب العلم في هذا الزمن، التَّنمر بالألقاب

(١) أي هُجر محِله، وقلَّ انتفاعُ الناس به؛ وذلك لسوء طباعه.

(٢) الوافي بالوفيات ١/ ١٣١.

(٣) إحياء علوم الدين، ص١٣١١.

العلمية، وما كان أحدٌ يتصوَّر أنها تصل بالبعض إلى هذا الحدِّ الذي يَشين صاحبَه[1].

ومما لا يطمئن القلب إليه، أن تجد في كتب ومقالات بعض المعاصرين التزامًا لنحت أسمائهم على طريقة الأقدمين مُذَيَّلًا بـ (الأثري) و(السلفي)، وغيرها مما هو من قبيل التزكية والتفخيم.

(٣) غرور النسب العلمي:

غرور النَّسب والانتساب صنيعٌ يُشبه ما كان عليه أهل الجاهلية من الفخر بالأنساب، والفخرُ بالأنساب العلمية لا يَبعُد أن يكون صورةً من صور الفخر والزهو، كأن المغترَّ بالنَّسب العلمي يريد امتلاكَ صلاحيات ومؤهلات ترفع خسيسته، وترفعه إلى مقام سامٍ بكونه تعلَّم على (فلانٍ) العالِم، ورافق فلانًا الـمُحدِّث، ولازم الفقيه، وتخرَّج على العالِم النِّحرير.

وفي تراجم كثير من المتأخرين والمعاصرين تشمُّ رائحة الغلو، فتجد الطالب يعظِّم شيخًا حتى تظن أنه إمام الدنيا في فنِّه، وما هو إلا فرد من أفرادها، ورجل من رجالاتها، لتفاجأ بأنه قد سطَّر في نهاية الترجمة أنه قد تتلمذ عليه، أو حضر له المجالس وزكَّاه، في وقائع متكاثرة ومفادُها واحد.

وإذا تأمَّلت صنيع السلف تجد روح التجرد ظاهرةً في تعظيم أشياخهم ومعلِّميهم ممن استقرَّ فضلُهم واستبان جهادهم في العلم والعمل، وتجد عندهم تعظيمَ الأستاذ تواضعًا وتعبُّدًا لله لا للفخر بالانتساب إليه والرِّواية عنه.

ومن غُرور النَّسب العِلمي: غرور بعض المشتغلين بأسانيد الكتب والإجازات واتصال الأسانيد إلى مؤلِّفيها، (فهمُّ أحدهم أن يدور البلاد، ويرى الشيوخ ليقول: أنا

(١) يراجع مبحث (التنمر بالألقاب العلمية) ووجه كونه عائقًا عن التحصيل؛ في كتاب (مدارج التعلم)، ص٢٠١.

أروي عن فلان، ولقيت فلانًا، ولي من الإسناد ما ليس لغيري)[1].

ومن عبير السلف ما ذكره البيهقي عن الشافعي رحمه الله، أنه روى حديثًا بنزولٍ مع كونه قد حصَّله بعلوٍّ قبل ذلك، ثم عقَّب قائلًا: (وهذا لأن هذا الحديث كان عند الشافعي عن إبراهيم بن محمد، وكان إبراهيم قد خلَط في إسناده، فأحبَّ أن يسمعه من طريقٍ صحيح فسمعه ممن هو أصغر سنًّا منه؛ لحاجته إليه، ولم يستنكف من ذلك؛ لتقواه اللهَ تعالى، ولأن قَصْدَه من العلم كان الإرشاد والنصيحة، لا الشرف به وبالعالي من الإسناد)[2].

ولا شك أن الاشتغال بأسانيد الكتب والاعتناء بها مهمٌّ في التحرِّي والتحقيق، لكنه قد يفتح باب الزَّهو عند من شُغف باتصال السَّند بأصحابها، وحرص على ذكر ذلك وأبرزه في المجالس، وقد يُستشعر هذا المعنى من صَنيع بِشر بن الحارث رحمه الله؛ فقد قال أيوب العطار: سمعت بشر بن الحارث يقول: (نا حماد بن زيد)، ثم قال: (أستغفرُ الله، إنَّ لِذِكر الإسناد في القلب خُيَلَاءَ)[3]. وصورة الخيلاء تظهر في كثير من مجالس الرِّواية والإجازات المعاصرة بجلاء.

ومما يؤسَف له، أن أكثر هذه المجالس خِلْوٌ من إقامة متنٍ صحيح أو إِسْنادٍ مستقيم!!

(٤) غرور الإمكانات الشخصية:

فقد يُبتلى الطالب بالزَّهو بما منحَه الله من فَهمٍ وذهنٍ وقَّاد، أو ما ينتج عنهما وهو مظنة الإصابة في البحث عن المشكلات، ودفعها، وإيضاح مُبهمها، وجودة التعبير عنها.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص٢٤٢. (٢) مناقب الشافعي ٢/ ٣٧.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب ١/ ٣٣٨، رقم (٧٦٦).

وللسلف في ذلك عبارات دوَّارة، تصف هذا الداء، تجمعها عبارة: (معجب برأيه)؛ لمن كان حالُه كذلك، ممن تشبَّعوا بالزَّهْو، وتملَّكَهم غرور الإمكانات الشخصية.

ومن صور ذلك:

- الاغترار بالقدرة على النَّظم.

فلا تكاد ترى طالبًا مُجِدًّا تملَّك آلةَ النَّظم ومهارة الشعر حتى تَفيض أوراقه وقراطيسه بالنظم والرجز، ويُخشى أن يكون محرِّكَ ذلك زهوٌ وعُجبٌ.

ومما وقعت عليه في كتب التراجم: ما أورده شمس الدين السخاوي في ترجمة أحد الفقهاء وأورد بعدها أبياتًا للمترجم له كان قد نَظَمَها، ثم عقَّب قائلًا:

(وكتب شيخنا [يعني الحافظ ابن حجر رحمه الله] تِلْوَ خطِّه: إنه من أعيان أهل زَبِيد، وكانت له وجاهة ورياسة، وهو شاعرٌ ليس له سماعٌ ولا رواية ولا دراية، وقد اجتمعتُ به فرأيته عريضَ الدعاوي كثير الشقاشق قليلَ العلم إلى الغاية، لكنه يَنظم)[1].

ومما يُخشى على مَن شُغف به أن ذلك يقدِّمُهُ على أنه كامل الأهلية مستتمٌّ لعلوم الآلة، فيُغَرُّ به عوامُّ الطلاب.

- الاغترار بالقدرة على الكتابة العلمية والأدبية.

فهذا الصنف (يجتهد في تزيين ألفاظه وتسجيعها وتحسين نظمه؛ كيلا يُنسب إلى الرَّكاكة، ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها؛ ليكون أقرب إلى نفع الناس)[2].

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٤/ ١٥٤.
(٢) إحياء علوم الدين، ص١٣١١ - بتصرف يسير-.

فهـــذا ملمح دقيق يغفل عنه كثيرون، ولا يحسُّــه إلَّا مَن دقَّت طبولُ الفخر في قلبه وخامَرَ الزهوُ رأسَه؛ فلا يستيقظ إلَّا على قوارعَ وهواجسَ تقضُّ مضجعه، وتزيد من قلقه على ضياع احتساب الأجر والنِّيَّة، وإصلاح الباطن والطَّوِيَّة.

- **الاغترار بإمكانات الحفظ والاستغناء عن الكتب.**

وهذا قد استشـــرى في كثير من الطُّلاب والمعلِّمين، ومما يُخشى منه تسرُّب الزهو والعُجب في طيَّات ثوب الاســـتحضار والحفظ. وقد سُئل الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله: لِمَ لا تقرأ من غير كتاب؟ قال: (أخاف العُجْب)[1].

(٥) غرور الثناء وحُسن الذِّكر:

فكم مـــن مَفتون ومَزْهُوٍّ كانت عباراتُ المدح والثناء ســـببًا في انقلاب حاله! وكم من مخذول أصيبت مَقاتلُه بإشـــادة الشـــيخ المعلِّم أو ثناء أهل العلم عليه، فلم تتنزل عبارات المدح في قلبه موضعَها الصحيح، بل اســـتعملها فيما فيه عَطَبُه وفسادُ قلبه!

(٦) غرور السُّرّاق والـمُنتَحِلين:

فكما أن (الغُرور بالمُحصَّل) حالُ كثيرٍ من منتسبي الطلب، وهو الباب الأعظم الـــذي تَلِجُ منه ريحُ الفخر والزهو، كذلك يوجـــد مَن هو (مغترٌّ بما لم يحصل)! وهو الكذَّاب الــــمُنتحِل، خاوي الوِفاض خالي الرأس من الأفكار، ممَّن يُحســـن سترها بكساءٍ من البلاغة والأسجاع.

وهذا صنفٌ وافر، عمادُ صَنْعَتِه التشبُّع بما لم يُعطَ، ولبس ثوب الزُّور، وانتحال الأبحاث والأفكار ونتاج العقول.

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٤٩.

فكم من فاضل ذِيعت شـكايتُه من انتحال أبحاثه من غَرُور عُتُلٍّ، بلْ زاد الأمر حتى بلغت الشِّكاية من سـرقة عقول الطلاب، وانتحال ثمرة بحثهم واجتهادهم من قِبل أساتذتهم.

وإذا كانت سـرقة الأبحاث والأفكار تكشـف بطالة، فهي أيضًا فاضحة لتلك النفس التي تتشـبع بالزهو وتمتطي جـواد الفخر والخُيَلاء، لكن شـواهد الامتحان فاضحة، وأقلام النقد والتحقيق كاشفة مُظهِرة لبواطن التلفيق؛ وذلك أن علماء الإسلام ما زال التوفيق حليفَهم، ولا تَرُوج عليهم صَنْعَةُ بطَّال، ونفخةُ الزهو تظهر مع الأيام.

* * *

لفتةٌ في الأدب العلمي ونسبة العلم إلى قائله:

من جميل ما تراه في المنتسـب إلى العلم الشـريف، الإنصافُ ونسبةُ الفضل إلى صاحبه، وخذ هذه اللَّفتة من أبي موسـى المديني رحمه الله؛ إذ يقول: (فلم أزل أتتبع ما فاته، وأكتب ما غفل عنه، إلى أن وقعت على كراسة غير كبيرة، جمعها بعض علماء خراسان بعد الخمسـين والأربعمائة، لم يُسَمَّ فيها مصنفُها، قد شحنها بما شذَّ عن كتاب أبي عبيد... فأضفت تلك الألفاظ إلى كتابي، وربما أشيرُ إلى قوله في أثناء ما يمرُّ بي من ذلك؛ لأني لم أستجز تضييع حقِّه، وإخمال ذِكره وسعيه وجمعه)[1].

رحمـه الله! مع كون الكاتب المنقول عنه مجهولًا، ولم يسـمَّ، إلَّا أنه لم يُرد التشبع والزور.

وعند الاطلاع على ترجمة أبي موسى المديني عليه رحمة الله، تجد عبد القادر الرهاوي يقول عنه: (وله التصانيف التي أربى فيها على المتقدمين، مع الثقة، والعفَّة...

(١) المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث ١/ ٤.

كان فيه من التواضع بحيث أنه يُقرئ الصغير والكبير، ويُرشد المبتدئ، رأيته يحفِّظ الصبيانَ القرآن في الألواح، وكان يمنع مَن يمشي معه، فعلتُ ذلك مرةً، فزجرني، وتردَّدتُ إليه نحوًا من سنة ونصف، فما رأيت منه ولا سمعت عنه سقطةً تُعاب عليه. وكان أبو مسعود كوتاه يقول: أبو موسى كنزٌ مخفيٌّ)[1].

* * *

السُّرَّاق نوعان:

- ذو قَدَمٍ في العِلم والقلم:

فهو يريد الاستزادة من (مظاهر) العلم والتحقيق؛ فيسرق جُهدَ غيره ويسطو على تحقيقه، ولا ينسبه إلى قائله، بل يضمُّه إلى كلامه برباط الأدب والصياغة، زهوًا وغرورًا.

وقد يكون الغرض أشبهَ بمن يدلِّس (تدليس الشيوخ) من الرواة؛ بأن يُعمي أعين القرَّاء عمَّن نقل عنه، لأنَفَةٍ وكِبْرٍ من المدلَّس، أو لمخالفته في مذهب، أو ضعف المنقول عنه، فيذكره بغير اسمه.

- خاوي الوفاض:

لا قدم له في العلم، ويحلو له أن يكون مُتجمِّلًا بصورة العلم والطَّلب.

فقد ترى بعض التّجار ممن رغب في الاندراج في قائمة المؤلفين، فاستعمل عمالًا لهم خبرةٌ في البحث لصياغة كُتب له تحمل اسمه، فجمعوا ما استطاعوا، وانتحلوا أبحاث كُتَّاب مغمورين؛ رغبةً في ظهور التاجر بصورة العالِم والمؤلِّف.

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٥٦.

علامات الغرور العلمي

للغرور العلمي أضرُب وعلامات تتشكل تبعًا لتنوع المراحل التي يمرُّ بها الإنسان في رحلة الحياة، فتظهر في بعضها دون أخرى، والبعض قد يحملها كاملة أو يجتزئ منها..
ومن غُرست بأرضه بذرة الغرور فإنه -ولا شك- حاصدُها يومًا، بل ستتطوّر في كل مرحلة بما يناسبها؛ صغرًا وكبرًا، تعلمًا وتعليمًا وإرشادًا، كذلك في نفسه أو مع الخَلْق.

أولًا: علامات العامة:

من علامات الغرور العلمي العامة التي تبدو على الـمُغترّ:

١- السّعي لمظاهر الشّرف والمنزلة.

فالسـعي للظهور بمظهر الشـرف والمنزلة ووفرة الألقاب وتميُّزها من متاع الحياة الدنيا، وفرقٌ بين مَن يريد الله والدار الآخرة ومَن يريد العلو والشرف.

وقد ذكر العلماء في ترجمة (أبي المظفر الأبِيوَرْدي) أنه كان يقول في صلاته: (اللهم ملِّكني مشـارقَ الأرض ومغاربها). فقال الذهبي معلقًا: (هو ريَّان من العلوم، موصـوفٌ بالدِّين والورع، إلَّا أنه تيَّاه، مُعجَبٌ بنفسـه، قد قتله حبُّ السـؤدد، وكان جميلًا لبَّاسًـا له هيئـةٌ ورُوَاء، وكان يفتخر. وقال عبد الغافر في (السـياق): الرئيس الأديب، الكاتب النَّسَّـابة، من مفاخر العصر، وأفاضل الدهر، لـه الفضائل الرائقة، والفصول الفائقة، والتصانيـف المعجزة، والتواليف المعُجِبَة، والنَّظْم الذي نسـخ أشعار المحدثين، ونسج فيه على منوال المعري، ومن فَوْقَه من الـمُفلَقين، رأيته شابًّا قام في درس إمام الحرمين مرارًا، وأنشـأ فيه قصائد كبارًا، يلفظها كما يشاء زبدًا من

بحر خاطره كما نشاء، مُيسَّر له الإنشــاء، طويل النفس، كثير الحفظ، يلتفت في أثناء كلامه إلى الفِقَر والوقائع، والاســتنباطات الغريبة، ثم خــرج إلى العراق، وأقام مدة يجذِب فضلَه بِضَبْعِهِ[1]، ويشــتهر بين الأفاضل كمالُ فضله، ومتانة طبعه، حتى ظهر أمره، وعلا قدره، وحصل له من الســلطان مكانة ونعمة، ثم كان يَرشُحُ من كلامه نوع تشــبُّثٍ بالخلافة، ودعوة إلى اتباع فضله، وادِّعاء استحقاق الإمامة، تبيضُ وساوسُ الشيطان في رأسه وتُفرِّخ، وترفع الكِبْر بأنفه وتشمخ)[2].

وقال محمد بن عبد الملك الهمذاني: (قدم بغداد ســنة ثمانين، ولازم خزانة الكتب النظامية، وكان من الذَّكاء على وصفٍ عجيبٍ، كان يســمع القصيدة الطويلة في نوبة، فيرويهــا، ويتصفَّح الكتاب مرةً، فيذكر فوائدَه ويحكيها، كان يُعابُ بإعجابه بنفسه، وكان عفيفًا متصونًا)[3].

وقال ابن الخشَّــاب: (مشــوبٌ أدبُه بفضولٍ من علوم لا تُعَدُّ في الفضل، دالَّةٌ على أن الأبيوردي كان ممخرقًا[4]، محبًّا لأنْ يُرى بعينِ مُفْتَنٍّ، متشبعًا بما لم يُعط)[5].

وفي ترجمة (إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب) أنه كان (شديد الزَّهو والعُجب، يحبُّ الانفراد بالرياسة، ويُظهر التعفُّف)[6].

٢- التَّناقض النَّفسي وعدم الانسجام.

المغرور متناقض وغير مُنســجم مع ذاته؛ فهو حامل للمتناقضات، جامعٌ بين

---

(١) أي بعَضُدِه.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٨٥-٢٨٦، باختصار موضع منه.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٩١.

(٤) أي يختلق أشياء ويدَّعيها.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٩١.

(٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١/ ٦٧.

الماس والدُّرِّ، والتراب والحجر؛ فبينما يعلو به شرف ما يحمل ونفاسة ما يكتنز إذ به يأبى إلَّا الانخراط في سلك الأحجار، والتضمُّخ بالتراب.

فبينما النصوص والقواعد تُقيمان صُلبَه على الاتِّضاع والإخلاص، إذ بنفثة الزهو ورنَّة الشيطان تأبيان إلَّا القعود والتخلُّفَ، فهو تائهٌ بين نفسٍ تنزع إلى رياسة وشرف، ودِين يحضُّ على التواضع.

٣- الجرأة على النّقد وأنفة الوقوع تحت طائلته.

فلا تجد مُعجبًا بنفسه مغترًّا بما أوتي من جهل إلَّا وهو نقَّاد لغيره، أَنِفٌ من استهدافه بنقدٍ أو نصيحة، والويل لمن تجرَّأ على انتقاد أو قارَبَ!

ومما يُنبه إليه هنا، أن حامل هذه النفسية قد يرُدُّ النقد لا للنقد، بل لكونه جاء من شخصٍ بعينه، فالقبول حينئذٍ قبولٌ نفسي أو شخصي - لا قبولًا للحق، والرفض كذلك رفض نفسي أو شخصي لا لكونه باطلًا.

يقول ابن القيم رحمه الله: (لا تصلح لك درجة التواضع حتى تقبل الحقَّ ممن تُحب وممن تُبغض، فتقبله من عدوِّك كما تقبله من وليِّك)[1].

والـمُعتاد على رؤية نفسه بعين الإعجاب، محالٌ أن يرى نفسه في موضع النقد والاستهداف؛ لرؤية نفسه بعين الكمال، ومحالٌ في نظره أن يخدش هذا الكمال، فيأتي إلى الرفض من بابٍ قريبٍ ليؤول صنيعه أمام الـمُنكِر عليه، أو يدفعه بتعليلات وأهواء يعلم قلبُه أن ذلك ليس من السداد في شيء.

وليس شرطًا أن يهجم على المنكِر والناصح، فإنه قد يقبل ظاهرًا ويرفض باطنًا، ومردُّ عِلم ذلك إلى العبد.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٢١.

والمغـرورون في رفض الحق أنـواع تتكاثر بكثرة الأهـواء والرغبات، لكن يجمعها أن النفس تأبى الانصياع لقهر الحق والصواب، والإنسـان -كما يقول شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله تعالى- (قد يعرف أن الحقَّ مع غيره، ومع هذا يجحد ذلك؛ لحسده إياه، أو لطلب عُلُوِّه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه، ويردَّ ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحقَّ معه)[١].

فائدة في وقوع الخطأ من العالم:

لوقـوع الخطأ من العالم ألـمٌ كبير على نفسـه؛ لأنه يشـدو التمام ويتحرَّى الصواب، فلا يكاد يَزِلُّ في مسألة حتى يلحقه الغمُّ وينكسر لله، ولعلَّ ذلك من حكمة اللـه تعالى، لكي يعلم العبد أن الكمال لله تعالـى، وأن فوق كل ذي علم عليم، وأن العبد لا يحسُن به إلا التواضع والخضوع لله.

يقول الحسـن رضي الله عنه: (لو أنَّ العالمَ كلَّما قال أحسن وأصاب لأوشك أن يُجنَّ من العُجب، وإنما العالم من يكثر صوابه)[٢].

٤- الاستبداد بالرأي وأنفة التراجع.

وأخـو الـجـهـالـة يسـتـبـد بـرأيـه

فـتـراه يعتسـف الأمـور مخاطـرا

وهذا الفعل -وهو الاسـتبداد بالـرأي وعدم التراجع عـن الخطأ- من أبرز علامات الغرور العلمي والاعتداد بالنفس؛ لذا فإن سِيما الأفاضل الرجوع عن الخطأ إلى إحقاق الصواب، وقبول النقد من قائله، بل وشكره والثناء عليه.

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١٩١.

(٢) محاضرات الأدباء ١/ ١٠٢، وانظر: لطائف المعارف، ص٥٧.

وفي (كتب التراجـم) تجد مبهجات تدفـع المطّلع إلـى التخلُّق بأخلاقهم والاســتفادة منها؛ فقد حُكي عن عبد الغنيِّ بن ســعيد الأزديِّ -رحمه الله- أنَّه قال: (لـمَّا رددت على أبي عبد الله الحاكم الأوهامَ التي في (المدْخل)؛ بعَث إليَّ يشكرُني، ويدعو لي؛ فعلمتُ أنه رجلٌ عاقلٌ)[1].

قال البيهقي رحمه الله: (وكان الشافعي يحفظ من الحديث ما كان يحتاج إليه، وكان لا يسـتنكف من الرجوع إلى أهله فيما اشتبه عليه منه؛ وذلك لشدة اتِّقائه لله عز وجلَّ، وخشيته منه، واحتياطه لدينه)[2].

من هنا فإنَّ أفضل ما يتخلَّق به الطالب خُلُق (الإنصاف الأدبي)، فـ (الراســخون فــي فضيلة الإنصاف لا يُبالُــون أن يكون رجوعُهم عن الخطأ أمــام مَن خالَفهم وحدَه، أو بمَحضر جمعٍ كبيرٍ لم يشــعروا بالخلاف، ولا بخطأ المخطــئ، أو إصابة المُصيب. وها هــو ذا التاريخ يُحدِّثنا عن رجال مِن علماء الإســلام بلغوا هذه الغاية من الإنصاف؛ قال عبد الرحمن بن مهديٍّ: ذاكرت القاضي عُبَيد الله بن الحسن في حديثٍ -وهو يومئذٍ قــاضٍ- فخالفني فيه، فدخلت عليه بعدُ وعنده الناسُ ســماطَين [أي صفَّين]، فقال لي: ذلك الحديث كما قلتَ أنت، وأرجع أنا صاغرًا. فعُبَيدُ الله بنُ الحســن قد أحســن إلى نفســه؛ إذ أخذها بفضيلة الإنصاف، وأحسن إلى الناس؛ إذْ علَّمهم كيف يعترفون بالخطأ إذا أخطَئوا، ولا يتلبَّثون في الرُّجوع إلى الحقِّ ولو عَظُمت مناصبهم، وعلَتْ أقدارُهم)[3].

ومن أســوأ صور الاغترار: التمسُّــك بأولِ خاطرٍ يسبق إليه الذهن، سواءٌ كان فكرة أو حلًّا لإشــكال، فتجد صاحبــه قد انتهض للدفاع عنــه، وحياطته، والْتماس

(١) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٧٠.

(٢) مناقب الشافعي ٢/ ١٥٣.

(٣) الإنصاف الأدبي، مقال للشــيخ محمد الخضر حسين، (ضمنَ مقالات لكبار كُتَّاب العربيَّة في العصر الحديث) ١/ ٦٣-٦٤.

المخارج له سواءٌ كانت لغوية أو فقهية أو أصولية... إلخ، وما ذلك إلَّا سعيًا في تلميع النَّفس وإظهار النَّباهة المطبوعة.

وانظر هذا المعنى عند أبي الحسن علي ابن الفضل المعافري:

والمـرءُ مغـرورٌ ببـادي رأيِـهِ

ويظهَـرُ الحـقُّ إذا مـا امتُحِنـا[1]

لذا، كان على الطالب أن يتمهَّل ولا يتعجَّل، ويصبر على رأيه، ولا يشيعُه؛ والأمر كما قال العز بن عبد السلام رحمه الله: (كم من اعتقادٍ جزم المرءُ به، وبالَغَ في الإنكار على مُخالِفِه، ثم تبيَّن له خطؤُه وقُبحه بعد الجزم بصوابه وحُسنه)[2].

ومن دوافع الاستبداد بالرأي وأنفة التراجع: ما أشار إليه الشوكاني رحمه الله، بقوله: (الشيخ قد يريد التَّظَهُّر لمن يأخذ عنه بأنه بمحلٍّ من التحقيق، وبمكانٍ من الإتقان، فيحملُهُ ذلك على دفع الحق إذا سبق فهمُه إلى الباطل؛ لئلَّا يظن مَن يأخذ عنه أنه يُخطئ ويغلَط، وهو لو عرف ما عند ذلك الذي يأخذ عنه العلم أن رجوعه عن الخطأ إلى الصواب أعظم في عينه وأجلُّ عنده وزاده ذلك رغبةً فيه ومحبةً له، وإذا استمر على الغلط وصمَّم على الخطأ كان عنده دون منزلةِ الرجوع إلى الحقِّ بمنازل)[3].

وهذا الخُلُق ليس خاصًّا بالكبار بل هو موجود أيضًا في صغار الطلاب، فالغرور تُرى جذورُه ونبضاته الأولى غالبًا في أرض الطلب، فإنَّ (التلميذ قد يخطر بباله التزيُّن لشيخه، والتجمُّل عنده بأنه قويُّ الفَهم سريعُ الإدراك صادقُ التصوُّر،

(١) الذيل والتكملة ١/ ٣٨٧.
(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/ ١٩.
(٣) أدب الطلب، ص٨١.

فيحمله ذلك على الوقوف على ما قد سبق إلى ذهنه من الخطأ، والتشبُّث بما دفع له من الغلط)[1].

وينبغي للإنسان أن يفرِّق بين حالتين:

الأولى: حالة الإعجاب بالرأي والاستبداد به وعدم التراجع.

والثانية: حالة التمسك بالصواب الذي أدى إليه اجتهادٌ صحيحٌ من مجتهدٍ مستتمٍّ لآلة الاجتهاد.

فإذا كان الاجتهاد صادرًا عن مجتهد بَنَى رأيه على ما أدَّاه إليه النظر الصحيح والفَهم السديد، وأَعْمَلَ قواعدَ النظر، وتأهَّل قبلها للنظر الاجتهادي، فحينها لا يقال عنه: مستبِدٌّ بالرأي أو مُعجب به؛ لأن تمسُّكه حينها تمسُّكٌ بالحقِّ الذي توصَّل إليه، والرجوع عنه بعد قيام الحجَّة لديه نكوصٌ عن الحق.

لذا، كان النكير على قول الإمام الذهبي -إن ثبت وإلَّا فالشكُّ قائمٌ حول نسبته- حين ذكرَ الإمامَ ابنَ القيِّم رحمه الله ونعته بأنه (مُعجَب برأيه)؛ إذ قال: (وقد حُبس مدةً وأوذي؛ لإنكاره شدَّ الرَّحل إلى قبر الخليل، والله يصلحه ويوفِّقه، سمع معي من جماعة، وتصدَّر للاشتغال ونشر العلم، ولكنه معجبٌ برأيه، جريء على الأمور)[2].

وهذا النعت مما يتعقَّب ويُرَدُّ عليه؛ لأن تمسُّك الإمام ابن القيم حينها كان نتاج أدلة واجتهادٍ ونظر. وقد تعقَّب الشوكانيُّ الإمامَ الذهبي مدافعًا عن ابن القيم -رحمهم الله- بقوله: (بل كان متقيِّدًا بالأدلة الصحيحة، مُعجبًا بالعمل بها، غيرَ معوِّل على الرأي، صادِعًا بالحق، لا يحابي فيه أحدًا، ونِعْمَتِ الجرأةُ)[3].

(١) أدب الطلب، ص٨١.

(٢) المعجم المختص بالمحدثين، ص٢٦٩.

(٣) البدر الطالع ٢/ ١٣٨، وانظر نحوه أيضًا: التاج المكلل، لصديق حسن القنوجي، ص٤١١.

٥- احتقار أهل العلم وطلابه خاصةً المخالفَ والمختصَّ بفنٍّ آخر.

فعلى قاعدة من أراد الشهرة فعليه أن يقدح في المشهور، قد يصدق القول هنا على المغتر بعلمه، لينتقل من الضِّعة إلى الرفعة، ومن الخمول إلى الشهرة؛ فإن الغرور قد يزيِّن لصاحبه أنه بتبيين خطأ المتنسبين إلى العلم والطلب يرتفع ذكرُه ويحسن مظهرُه ويقدمه أمام مجتمعه وأقرانه بصورة حسنة عليَّة. ومن الإنصاف أن يقال: إن إلف الردود والولع بالسقطة والاحتقار لأهل العلم ديدنُ الناقصين علمًا وعملًا؛ لأنه لا يُقِرُّ لأحد بفضل.

ثانيًا: علاماته في مرحلة التَّلقي والطَّلب:

ففي مراحل الطلب لا تنفكُّ نواة الغرور عن التشكُّل في قلب العبد؛ بإثارة أفكار ومآرب تخدم توْقَه ونزوعه وزهْوه، فمن علاماته في مراحل الطَّلب:

١- التجمُّل بصورة الطَّلب.

فالمغترُّ دائمُ الحرصِ على إظهار نفسه كطالبِ علمٍ ويكثر التعريف بذلك؛ فليس مرادُه في طلب العلم أنه ممتثل لفرض عليه (وإنما مُرادُه في طلبه أن يكثر التعرف أنه من طلَّاب العلم)[١].

قال حبيب بن عبيد الرحبي رحمه الله: (تعلَّموا العلم، واعقِلوه، وانتفعوا به، ولا تَعَلَّموه لتَجَمَّلوا به، فإنه يوشك إن طال بك العُمُر أن يُتجمل بالعلم، كما يَتَجَمَّلُ الرجلُ بثوبه)[٢].

---

(١) أخلاق العلماء للآجري، ص٩٧.

(٢) رواه الخطيب في (اقتضاء العلم العمل)، ص٣٤، رقم (٣٥)، والآجري في (أخلاق العلماء)، ص١٠١.

٢- التماسُ العلوم التي تُمهّد للشرف.

فيقصد الشرف ويتغيَّاه، ولا يلتمس ما أقام عود التديُّن وتأصيل العلم الشرعي.

وفي أدبيات الاغترار نجد شغف المبتلَى به ظاهرًا في إثبات الكينونة العِلمية، والشوق إلى حكاية المحصَّل، ومن هنا يُفقد التقدير الحقيقي لقِيَمِ العلوم وأولوياتها؛ فلا غَرْوَ أن تجد قوام علوم المغرور في الغالب ما كانت مُفيدةً في التسميع، شافعةً عند المطارحات[1]، أما علوم القلب المعِينة على إقامة إيمان العبد وغير ذلك من المعاني السامية فإنها في وادٍ آخر.

وهؤلاء عَنَاهم أبو حامد الغزالي رحمه الله بقوله: (ومن هؤلاء مَن اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه إلَّا تعلُّم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة، فهو طولَ الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب، والتفقد لعيوب الأقران، والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية، وهؤلاء هم سباع الإنس؛ طبعُهم الإيذاء وهمُّهم السَّفَه، ولا يقصدون العلم إلَّا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران، فكلُّ علمٍ لا يحتاجون إليه في المباهاة -كعلم القلب، وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة- فإنهم يستحقرونه، ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ، وإنما التحقيق عندهم معرفةُ تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل)[2].

ضبط:

قال ابن هبيرة رحمه الله: (**في هذا الحديث «تعلمت ليقال: عالم، وقد قيل»**

---

(١) المُطارَحة: إلقاء القوم المسائل بعضهم على بعض، تقول: طارَحَهُ الكلام. متعديًا إلى مفعولين. ينظر: مختار الصحاح، ص١٦٣.

(٢) إحياء علوم الدين، ص١٣١٣.

من الفقه أن هؤلاء الثلاثة - فيما أرى- لم تكن أفعالهم إلَّا ليُقَال عنهم. فأمَّا لو كانت أفعالهم لأجل الله تعالى؛ ثم عقب ذلك أن يقال: جريء، وعالم، وجواد، فسرَّهم ذلك، لم يكن إيثارهم لهذا المدح مما يحلُّ عقدة عزمهم الأول، ولم يكن هذا التوبيخ متناولًا لهم؛ لأنه إذا تعلم العالم العلم لله ثم سرَّه أن يقال: إنه عالِم، لم يتناوله هذا الذمُّ، وكذلك المُنفق والمجاهد إذا قيل بعد خلوص نيتهما: جواد، وجريء، لم يضرهما إذا لم يكن مبنَى قصدهما لذلك)[1].

٣- قصد التخصص المبكر قبل الشمول العلمي.

بات من أبجديات هذا العصر، التركيزُ على معني التخصُّص في باب من العلم، تفريعًا على تجزؤ المعرفة.

والغرور العلمي هنا لدى بعض الطلاب قد يأتي في صورة قصد التخصص قبل المرور بقاعدة تأصيلية في آحاد العلوم الشرعية؛ ليكون دقيقًا في بابٍ من العلم يراه محقِّقًا لصورة ارتَسَمَها في مخيلته تُشبع أحلامه، وليس معنى ذلك أن كل قاصد لذلك في باكورة الطلب يكون مغرورًا، لكنها تَشي بتوجه البعض للبناء الرأسي قبل اكتمال القاعدة التأصيلية لرسم صورة التميُّز.

ولأن (الإفراد قاتل) كما قال الشافعي رحمه الله[2]، فإنَّ التخصص المبكر قتلٌ لعلمية الطالب، وسبب في عدم نُضج مسائل العلم الجُمْلي لديه، ومن أشدها عدم الانسباك والترابط بين أجزاء العلم المختلفة، أي أن الطالب يفتقد حسًّا بديعًا وهو (تخادم العلوم).

فأي تحقيق وإفادة يحصِّلُها باحثٌ لم تتخادم العلوم وتتعاون أجزاؤها لإنضاج المسألة؟! وأي بحث هذا الذي يستفتحه الطالب رأسًا في فنٍّ دون أن يحوجه إلى النظر

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح ٨/ ٣٦.

(٢) لمعرفة معناها وقصتها ينظر: مدارج التعلم، ص٦٠.

في (علوم اللغة)، و(المعاجم)، و(التفسـير)، و(كتب السُّنَّة) وشروحها، و(تخريج الأحاديث)، و(التراجم)، و(كتب الفقه)، و(أصوله)، و(التاريخ) وغيرها... ؟!

فالمسـائل تجـرُّ ورائها مثيلاتها، والنظيـر يحوِج إلى نظيـره، وبينهما فروع ودقائق، تراها عيون (التخادم) لا عين (الإفراد)!

٤- فرط النزوع إلى الإشكالات.

فمن طلاب العلـم صنف رُزق قوة الفَهم وجودة الاستشـكال، لكن أكثرهم يُبتلـى بداء النابغين إلَّا أن يتداركه الله بمَنِّه ولُطفه. فهذا الـمُبتلَى يدور على الحِلَق والمجالس والأندية لينثر إشكالاته، ويبيِّن فضل ذهنه وسداده.

٥- ملاحقة المعلم.

وهذه الصورة تكثُر شـكاوى المُعلِّمين والمُفْتِين منهـا، ويحذِّر العلماء منها بإشاراتهم وعباراتهم في المجالس وغيرها.

وصورتها أن ينبري طالب لبحث مسـألة، ثم يسأل شـيخه عنها؛ مُظهِرًا علمَ نفسـه وفضلَها في المجلس، ثم يلاحقه بإشكالات المسألة وتوابعها، حتى إذا أبدى المعلـم رأيًا أورد عليه تعقُّبه ونقضَه، مما يُوقِع المعلم أو المفتي في حرج، فقد تكون المسـألة في طور النسيان وطول العهد، مما يصعب معه حضور المسألة وإشكالاتها إلَّا ببحثٍ آنيٍّ مُتقَنٍ. فهذا مغرور صغير قابع في ثوب التعلُّم في ساحة الطلب!

ثالثًا: علاماته في مرحلة التعليم والنشر:

تختلف علامـات الغرور في مراحل النفـع عن المرحلة السـابقة -الطلب والتعلم- كمـا تختلف صورتها من طالب إلى عالم، فلـكلٍّ منها مظاهرُها، وحصرُ ذلك ورسمه على وجهه صعبٌ، لكن النَّفس قد تعرف ذلك وتستشعره، والقصد هنا لقطُ مُثُلٍ مَرَّت في محراب التعلُّم وطَفَحت في مجالسه.

والتعليم والنشر له طرق متنوعة؛ فقد يكون عبر الكتب العلمية والأبحاث، سواء كانت ورقية أو حاسوبية، وقد يكون عبر موقع (تواصلي) أو مجلات ينشر عبرها أفكاره، أو جلسات تعليم في مسجد أو غيره.

ففي هذه المرحلة تأخذ مظاهر الغرور العلمي منحنى أبعد عن سذاجة المبتدئ.

ومن مظاهره:

١- إظهار المحفوظ من المتون الصعبة والألفيات العلمية عند غير أهلها وبلا داعٍ.

فمحضُ استظهارِها وسردِها بداعٍ أو غير داع عند أهلها أو غير أهلها، ليس بدليلٍ قاطعٍ على أن صاحبه قد صاحَبَه الغرورُ العلمي، لكنه قد يفتح له بابه. لكن قَصْدَ ذِكرِها أثناءَ التعليم عند العامَّة أو مَن لا يفهمها ممن ليس من أهلها، وليس في ذكرها داعٍ إلَّا الإبهار بسعة المحفوظ وقوته =فهذا -بلا شك- داخل في مظاهر الغرور والتسميع.

* * *

لطيفة:

قال الجاحظ: وقلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فلِمَ لا تجعل كُتُبَك مفهومةً كلَّها، وما بالُنا نفهم بعضَها ولا نفهم أكثرَها، وما بالُك تقدم بعض العوِيص وتؤخر بعض المفهوم؟!

قال: أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدِّين، ولو وضعتها هذا الوضعَ الذي تدعوني إليه، قلَّت حاجاتهم إليَّ فيها، وإنما كانت غايتي المنالة،

فأنا أضع بعضهـا هذا الوضع المفهوم، لتدعوهم حلاوةُ مـا فَهِموا إلى الْتماس فَهْمِ ما لـم يفهموا، وإنما قد كسـبتُ في هذا التدبير؛ إذ كنت إلى التكسُّـب ذهبتُ، ولكن ما بالُ إبراهيم النظَّام، وفلان وفلان، يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثم يأخذها مثلي في مواقفته[1]، وحسن نظره، وشدة عنايته، ولا يفهم أكثرها[2]؟!

***

ويقرب من هذا التزام النقاش في بعض العلـوم الصعبة عند غير أهلها وبلا داعٍ، ويظهر ذلك جليًّا في الاستماتة بربط النقاش بمسائل خارجة عن المرحلة العلمية والذهنية المناسبة أثناء التعليم؛ ليستلزم ذلك سَرْدَها وإن لم يدركها المستمعون على وجهها.

٢- عدم الدلالة على العلماء والمختصِّين.

فلمَّا كان المغرور لا يرى إلَّا نفسَه، ولا يعتدُّ إلا بها علمًا وتصوُّرًا وإفادة، كان من حاله أن جعل نفسه مركزًا تدور حوله أحلامُ الطلَّاب، فكان هذا من الخيانة لقانون الطلب وأخلاق العلماء.

٣- الحطُّ على الأكابر والتنقُّص من علومهم.

لا يسـتقرُّ الزهو والغرور في قلب إلَّا أُعطي معه حطٌّ وتنقيص من قدر الأكابر والسابقين وعلومهم.

٤- الجرأة على إبداء الرأي عبر منصَّات النشر.

الولع بإبداء الرأي، صوابًا كان أو خطأً، من مظاهر الاغترار بالعلم؛ ليُظهر التمكُّنَ العلمي، ووفـورَ الأهلية والعقل العلمي. وتظهر هذه الجرأة فـي قوالب متنوعة؛ فمنها

---

(١) أي خصومته وجداله

(٢) الحيوان ١/ ٩١، ٩٢.

ما يظهر في قالب مؤلَّفات استعجل في إبدائها قبل اختمار مادَّتِها واستدعاء الحاجة إليها، ومنها النشـر الإلكتروني الحديث عبر الحسابات الشخصية، ومنها الولع بالنقد ومنازعة الأقوال والْتماس شواذ المسائل واستثناءاتها وطرحها في كل فرصة سانحة ومِنبر.

٥- تجاهل النبوغ العلمي عند الطلاب.

فذلك الخُلُق السيئ قد يقع بقصدٍ أو غير قصد، فإنه لشدة تعظيمه لنفسه وأقواله لا يبالـي بالأخذ بيد المتعلم لكي يترقَّى في مراحل العلم، أو ينال بصيرة في البحث، ولا يسـمح بذلك إلَّا إذا كان متَّفقًا مع مصلحته الذاتية وإلَّا فلا وألف لا، ومَن قارب هؤلاء عرَف ذلك يقينًا حتى لَكأنه من أبجديات أخلاقهم وأذهانهم.

والعالـمُ الربَّاني هو مـن يُفجِّر طاقات الطلاب والأتبـاع العِلمية والإيمانية، ويحـرص على أن ينقـل إليهم مَلَكَةَ العلـم والفَهم. ولا أدلَّ علـى ذلك من هذين الموقفين الرائعين:

الأول منهمـا: موقـف النبي ﷺ مع أصحابـه رضوان الله عليهـم؛ إذ طرح عليهم سـؤالًا يختبر ما عندهم من الفهم، ويفجِّر طاقاتهم، وينشط أذهانهم؛ فيحكي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «**إن من الشـجر شـجرةً لا يسقط ورقُها، وهي مثل المسـلم، حدثوني ما هي؟**» فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسـي أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هي النخلة**» قال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقـال: (لأنْ تكون قُلتَها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا)[1]. فأفاد الحديث إلقاء العالم المسـائل على طلابه ليفجِّرَ طاقاتهم العِلمية، ويوسـع مدارك الفهم والتمثيل

(١) رواه البخاري في مواضـع منها: رقـم (٦٢)، و(٧٢)، و(١٣١) و(٢٢٠٩)، و(٤٤٢١)، و(٤٦٨٩)، و(٥٤٤٤)، و(٦١٤٤)، ومسلم رقم (٢٨١١).

وغيرها. وفيه ضرب الأمثال والأشباه في تصوير المعاني لترسخ في الذهن، ولتجديد النظر[1]، كما هو دليل على جواز إلقاء المسائل على الجلساء لاستخراج أفهامهم، ولا ينافيه النهيُ عن الأغاليط؛ لأن ذلك فيما يراد به تغليط المسؤول[2].

وقد بوَّب الإمام البخاري على هذا الحديث في صحيحه: في كتاب العلم، بقوله: (باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم)[3]. وفي كتاب العلم أيضًا، بقوله: (باب الفَهم في العلم)[4].

والثاني: موقف عمر رضي الله عنه مع ابن عباس رضي الله عنهما؛ يقول ابن عباس رضي الله عنهما: كان عمر رضي الله عنه يُدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تُدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذاتَ يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذٍ إلَّا ليُرِيَهم منِّي، فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ حتى ختم السورة. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئًا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذلك قولك؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أعلَمَهُ الله له، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝﴾. قال عمر: ما أعلمُ منها إلَّا ما تعلَم[5].

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير ١/ ٤٤٣.

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير ١/ ٤٤٢، ٤٤٣.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٢٢.

(٤) صحيح البخاري ١/ ٢٥.

(٥) رواه البخاري، رقم (٤٠٤٣).

حصاد الهشيم

بعد رحلة طويلة يسلكها المُغترّ مبتدِئًا بنبضة الفخر والزهو، ومرورًا بأنواع الغرور وأشكاله، إذا به يصل إلى الحصاد، ولكن الحصاد لن يكون حلوًا كما كان يرجو ويأمل، فلقد انقلب السحر على الساحر، وصار إلى الضد، وأضحى الحصاد هشيمًا تذروه الرياح؛ فالزارع في أرض الغرور لن يحصد إلَّا الخيبة والإفلاس.

أولًا: الحصاد العلمي:

١- الإفلاس العلمي.

مــن تــحــلّــى بــغــيــر مــا هــو فيه

فــضــحــتــه شــواهــد الامــتــحــان

وجــرى في العلوم جــري سُــكَــيْــتٍ[١]

خلَّفته الــجــيــادُ يــوم الــرهــان[٢]

الإفلاس هو متاع أهل الغرور والدعاوى، وهذه النتيجة الطبيعية بلا شك؛ فما بعد إعظام النفس إلا حقارتها، وما بعد الاستعلاء والافتخار إلَّا الخزي والصَّغار؛ لقد (خَدع) و(خُدع) إذ أعلى من شـأن نفسه وعظَّمها وجعل لها هالةً من الكبرياء، ففاتَه تقدير مكانته الحقيقية، وغاب عنه إدراك حقيقة آلاته العلمية والبحثية، ولم يحسـن

(١) السُّكَيت: آخرُ ما يجيء من الخيل في حلبة السباق.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧٧.

تفسير مخزونه، فقد ظل أمدًا طويلاً يعتمد على مخزونه من كلمات [illegible] والتعبيرات الأدبية ومختصراته البحثية وتخريجاته القليلة، وأشتات من هنا وهناك، [illegible] خيبة بالأسى، فأخذ يكرر نفسه ويدور بين هذه المصادر ولا يضيف جديدًا [illegible] عمره، فكانت المرحلة العكسية والانتكاسة [illegible]، فافتقر [illegible] [illegible] وأضاعت أمواله بنادر التقنيات، [illegible]

كذا [illegible] [illegible]!

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وتخلو ساحة مغرور عن تهمة انتحال لما لا يحسن، أو ادّعاء ما لا يملك، فهذا شأن المغرور الزاعق في الدعاوى، والمضروب في المناهية.

ومن جميل قول ابن المقفع: (لا تكونن ادّعاءة العلم في كل ما يعرض بينك وبين أصحابك؛ فإنك من ذلك بين فضيحتين، إمّا أن ينازعوك فيما ادّعيت، فيهجم منك على الجهالة والصلف، وإمّا ألّا ينازعوك، ويخلو في يديك ما ادّعيت من الأمور،

فينكشف عند التصنّع والمعجزة)(1). فهذا أيضًا يشير إلى مآل الغرور.

ومن صور دعوى الملكة العلمية، أن تجد منتسبًا إلى العلم والطلب إذا عرض عليه إشكال بادر بلا مهلة أو تروٍّ؛ إظهارًا لملكة مدعاة.

ومن درجات الغرور العلمي أن يظنّ أنه بخوضه في شيء من العلم قد أُعطي حقّ الحديث فيه، ثم يتبحّر فيه أو يسبر أغواره.

ومنه الدعوى المسمّاة بالتكثّر فصولها؛ فقد كثرت شكوى العلماء والأدباء تطفّل أولئك فيما لا يعرفون من فنون العلم.

ومن أكثر من عثرت عليه ممن تحدث عن هذا الجاحظ (المتوفى في ٢٥٥هـ) حيث وصف غرور أحدهم بعد ذكر مقالات الحكمة فقال: (ولقد سمعت له كلامًا كثيرًا من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس يدلّ على أنّ الرجل حين أحسن في شيء، رفعه العجب بنفسه أنه لا يرى شيئًا يمتنع عليه، وغرّه من نفسه الذي غرّ الخليل بن أحمد حين أحسن في النحو والعروض، فظنّ أنه يحسن الكلام وتأليف اللحون، فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدلّ عليهما إلا المِرّة المحترقة، ولا يؤدّي إلى مثل ذلك إلا خذلان من الله تعالى، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يعجزه شيء)(2).

وممن أشار إلى هذه الظاهرة أبو القاسم الآمدي (المتوفى في ٣٧٠هـ)؛ إذ يقول: (لعلّك -أكرمك الله- اغتررت بأنْ شارفت شيئًا من تقسيمات المنطق، وجُمَلًا من الكلام والجدال، أو علمت أبوابًا من الحلال والحرام، أو حفظت صدرًا من اللُّغة، أو اطّلعت على بعض مقاييس العربية، وأنّك لمّا أخذت بطرف نوعٍ من هذه الأنواع معاناةً ومزاولةً ومتّصل عناية، فتوحّدت فيه وميّزت - ظننت أنّ كلّ ما لم

(1) الأدب الكبير والأدب الصغير، ص٤٧.

(2) الحيوان ١/ ١٥٠.

تلابسْه من العلوم ولم تزاولْه يجري ذلك المجرى، وأنَّك متى تعرَّضت له، وأمررت قريحتَــك عليه نفذت فيه، وكشــفت عن معانيه. هيهات! لقد ظننــت باطلًا، ورُمتَ عســيرًا؛ لأنَّ العلم -أيَّ نوعٍ كان- لا يدركه طالبه إلَّا بالانقطاع إليه، والإكباب عليه، والجدِّ فيه، والحرص على معرفة أســراره وغوامضه، ثــم قد يتأتى جنسٌ من العلوم لطالبه ويســهل، ويمتنع عليه جنسٌ آخر ويتعذَّر؛ لأن كلَّ امرئٍ إنَّما يتيســر له ما في طبعه قبوله، وما في طاقتــه تعلُّمه. فينبغي -أصلَحَك الله- أن تقف حيث وُقف بك، وتقنع بما قُسِمَ لك، ولا تتعدَّى إلى ما ليس من شأنك ولا من صناعتك)[1].

كما نقــل الماوردي رحمه اللــه (المتوفى في ٤٥٠هـ) عــن بعض الحكماء قولهم: (من العلم ألَّا تتكلَّم فيما لا تعلم بكلامِ مَن يعلم، فحســبُك جهلًا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم)[2].

ومن ذلك أيضًا قول ابن السبكي رحمه الله (المتوفى في ٧٧١هـ): (والمغرور مَن اغترَّ بعقله، فظنَّ أن ما هو مُنتَفٍ عن علمه، فهو منتفٍ في نفسه)[3].

***

بالنظر إلى حقيقة هذا المصطلح (دعوى التمكن العلمي) أو (الأهلية العلمية) يــرى المرء أن الأمر مفتقر إلى ضبط وتحقيق؛ إذ لا يكاد يطمئن القلب إلى ذَمِّه جملةً واحدة، أو الحطِّ على مُدَّعِيه بلا نظرٍ إلى قرائن أو أسباب مفسرة.

أفكلَّما ادَّعَى رجلٌ تمكنًا في فنٍّ من الفنون، انصرف ذهنُ السامع إلى رَمْيِه بتهمة الغرور العلمي إلى غيرها من مفرداتٍ تزجره عن صنيعه؟ وهل من الممكن اســتلالُ

(١) الموازنة بين أبي تمام والبحتري، لأبي القاسم الآمِدي، ص١٧٠ - ١٧١.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص١٠١.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٢٧١.

معنى صحيح أو صورة مقبولة من هذا المصطلح؟ وهل من سبيل إلى الوصول إلى معيار أو ضابط للمسألة؟ وما هي العلاقة بين الغرور العلمي ودعوى الأهلية؟ وهل يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[1] كان مغترًا بادِّعاء التمكُّن، وكذلك الخَضِر عليه السلام: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾[2]؟ وأيضًا الهدهد لما قال لسليمان عليه السلام: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾[3]؟

لذا، فإنه لإيضاح المشكل لا بد من إبراز عدة نقاط:

أولًا: أن المراد بمصطلح (دعوى التمكن العلمي) هنا **(ادِّعاء منتسب إلى العلم الأهلية العلمية والتمكن من النظر السديد في مسائله)**. فإذا ادَّعى المنتسب إلى العلم كونه مؤهلًا متمكنًا من النظر العلمي وإعطاء رأيٍ فيه، فهذا هو المعنى الذي ندندن حوله.

ثانيًا: أن الغرور العلمي له دوافع متنوعة تتضافر في إيجاد حالة الاغترار وتنوّع صوره، فتجده متَّسعَ الدلالة والمحلّ؛ والقرائن تحدد المركب الذي اختاره صاحبُه، وذلك أن (الغرور) و(العجب) وغيرها من المعاني القلبية لا يطَّلع على حقيقتها إلَّا الله عزَّ وجلَّ، ولكننا قد نحكم بما يظهر من القرائن الواضحة وبالأثر الذي يدل على وجود مادة غرور وعجب مؤثرة في القلب.

وبالنظر في (دعوى التمكن العلمي) نجدها قد تكون صورة من صور الغرور العلمي إذا كانت حاملة لبذرة الغرور والفخر، حينها ستجد فلتات اللسان مُشبعة بالعُجب، مختالة بـرداء الزهو، مما يجعلنا نجزم أن مدعـي التمكن مَغرور مُعجب بعلمه، وليس غرضه توضيح الرتبة العلمية لإيصال النفع، أو للحاجة إلى ذلك كبعث

(1) سورة يوسف، الآية: (٥٥).

(2) سورة الكهف، الآية: (٦٨).

(3) سورة النمل، الآية: (٢٢).

الطمأنينــة للمطَّلع على ما قرَّره في مســألة، وإن كان الأولــى بالعالِم النأيُ عن تلك الإطلاقات؛ لأن مُطلِقَها منظورٌ بعين التهمة حتى وإن كان إمامَ الدنيا في فنِّه. وهذا قد يستشــعره المطَّلع إذا قرأ عبارة ابن السبكي رحمه الله عن نفسه؛ إذ يقول: (وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق، لا يقدر أحدٌ أن يردَّ عليَّ تلك الكلمة) في رســالة كتبها إلى نائب الشــام. وقد عقَّب الســيوطي عليها بقوله: (وهو مقبول فيما قال عن نفسه؛ فإن العلماء أَدْيَنُ وأَوْرَعُ وأخشــى لله من أن يتقوَّلُوا الباطلَ)[1]. وابنُ السُّبكي معلومٌ تمكُّنُه في العلم وآلاته، لكن إطلاقه على نفسه قد يجرُّ تلك التهمة إليه.

ومما يؤيد صدق هذا التحليل -أن مطلق هذه العبارات منظور بعين التهمة وإن كان إمامًا في العلم- أن جلال الدين السيوطي رحمه الله لما ذكر رتبة نفسِهِ العِلمِية، نفى عن نفسه خُلُقَ (الافتخار)، فيقول: (وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى. أقول ذلك تحدُّثًا بنعمة الله تعالى، لا فخرًا، وأي شــيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر، وقد أزف الرحيل، وبدا الشــيب، وذهب أطيب العمر، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مُصنَّفًا، بأقوالها وأدلَّتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدرت على ذلك، من فضل الله، لا بحولي، ولا بقوتي، فلا حول ولا قوة إلَّا بالله، ما شاء الله، لا قوة إلَّا بالله)[2].

وقوله أيضًا في الإشادة:

(فحاولني الســائل تحرير المقال في ذلك، فلم أُبلغه مقصودَه، وقلت: جُولوا في النــاس جولةً، فإنه ثَم مَن ينفخ أشــداقه، ويدَّعي مناظرتــي، ويُنكر عليَّ دعواي الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة، ويزعم أنه يعارضني، ويستجيش على

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٢٨، وتقرير الاستناد للسيوطي، ص٦٥.

(٢) المحاضرات والمحاورات، للسيوطي، ص٩.

من لو اجتمع هو وهم في صعيدٍ واحد، ونفخت عليهم نفخة صاروا هباءً منثورًا، فدار السـائل المذكور على الناس، وأتى كلَّ ذاكرٍ وناسٍ، وقصد أهلَ النجدة والباس، فلم يجد مَـن يُزيل عنه الإلباس، ومضى على ذلك بقيَّةَ العام. (والسـؤال) بِكرٌ لم يَفُضَّ أحدٌ خاتمها، بل ولا جَسَـرَ جاسـرٌ أن يَحسُـرَ لِثَامَها، وكلَّما أراد أحد أن يدنو منها اسـتعصت وامتنعت، وكل من حدَّثته نفسـه أن يمدَّ يده إليها قُطعت، وكل مَن طَرَقَ سـمعَه هذا السـؤالُ لم يجد له بابًا يطرقه غير بابي، وسلَّم الناس أنه لا كاشف له بعد لساني سوى واحد، وهو كتابي، فقصدني القاصدون في كشفه، وسألني الواردون أن أُحَبِّرَ فيه مؤلَّفًا يَزْدَانُ بوصفه، فأجبتهم إلى ما سـألوا، وشرعت لهم منهلًا، فإن شاؤوا عَلُّوا، وإن شاؤوا نَهَلُوا، وسميته: (الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف)...)[1].

فلمَّا أطلق الجلال مثل هذه العبارات في فتاويه وكُتبه جرَّت عليه المشـاكل، وأنقصت رتبته في أعين كثير من أقرانه، بل لم يكونوا ليسكتوا عنه أو يُسلموا له بهذا.

فـ (قامت عليه في زمنه بذلك القيامة، ولم تسـلَم له في عصره هامة، وطلبوا أن يناظـروه فامتنع، وقال [أي السـيوطي]: (لا أناظر إلَّا من هو مجتهد مثلي، وليس في العصر مجتهد إلَّا أنا!!) كما حكاه هو عن نفسـه. وكتبوا له حيث تدَّعي الاجتهاد فعليك الإثبات؛ ليكون الجواب على قـدر الدعوى فتكون صاحبَ مذهبٍ خامس، فلم يُجِبْهم)[2].

بل حكى الـمنَاوي رحمه الله إنكارَ علماء عصره عليه في ذلك، فقال: (قال العلَّامة الشهاب ابن حجر الهيتمي: (لما ادَّعى الجلال ذلك، قام عليه معاصروه ورَمَوه عن قوسٍ واحدة، وكتبوا له سـؤالًا فيه مسائل أَطلق الأصحابُ فيها وجهين، وطلبوا

(١) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف، (ضمن كتاب الحاوي للفتاوي ٢/ ٨٦).

(٢) فيض القدير ١/ ١١.

منه إن كان عنده أدنى مراتب الاجتهاد؛ وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الأوجه بدليل على قواعد المجتهدين، فرد السؤال من غير كتابة عليه، واعتذر بأن له اشتغالًا يمنعُهُ من النظر في ذلك).

قال الشهاب الرملي: (فتأمل صعوبة هذه المرتبة -أعني اجتهاد الفتوى- الذي هو أدنى مراتب الاجتهاد، يظهر لك أن مدَّعيَها فضلًا عن مدَّعي الاجتهاد المطلَق في حيرة من أمره وفسادٍ في فكره، وأنه ممَّن ركب متن عمياء وخبط خبط عشواء). قال: (من تصور مرتبة الاجتهاد المطلق استحيا من الله تعالى أن ينسبها لأحد من أهل هذه الأزمنة، بل قال ابن الصلاح ومن تبعه: (إنها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة)، ولابن الصلاح نحو ثلاثمائة سنة فتكون قد انقطعت من نحو ستمائة سنة، بل نقل ابن الصلاح عن بعض الأصوليين أنه لم يوجد بعد عصر الشافعي مجتهد مستقلٌّ). ثم قال [أي الرملي]: (وإذا كان بين الأئمة نزاع طويل في أن إمام الحرمين وحجة الإسلام الغزالي -وناهيك بهما- هل هما من أصحاب الوجوه أم لا؟ كما هو الأصح عند جماعة، فما ظنُّك بغيرهما؟! بل قال الأئمة في الروياني (صاحب البحر) أنه لم يكن من أصحاب الوجوه، هذا مع قوله: (لو ضاعت نصوص الشافعي لأمليتُها من صدري).

فإذا لم يتأهل هؤلاء الأكابر لمرتبة الاجتهاد المذهبي، فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثرَ عباراتهم على وجهها أن يدَّعى ما هو أعلى من ذلك، وهو الاجتهاد المطلَق؟! سبحانك هذا بهتان عظيم).

وقال فقيه العصر شيخ الإفتاء والتدريس في القرن العاشر شيخنا الشمس الرملي، عن والده شيخ الإسلام أبي العباس الرملي، أنه وقف على ثماني عشرة مسألة فقهية، سُئل عنها الجلالُ من مسائل الخلاف المنقولة، فأجاب عن نحو شطرها من كلام قوم من المتأخِّرين كالزركشي، واعتذر عن الباقي بأن الترجيح لا يُقدِمُ عليه إلَّا جاهل أو فاسق.

قال الشمس: فتأمَّلت فإذا أكثرُها من المنقول المفروغ منه، فقلت: سبحان الله! رجل ادَّعى الاجتهاد وخفي عليه ذلك؟ فأجبت عن ثلاثة عشر منها في مجلسٍ واحدٍ بكلام متين من كلام المتقدِّمين، وبتُّ على عزم إكمالها، فضعفت تلك الليلة فعددت ذلك كرامة للمؤلف.

وليس حكايتي لذلك من قبيل الغضِّ منه ولا الطعن عليه، بل حذرًا أن يقلِّده بعضُ الأغبياء فيما اختاره، وجعله مذهبَه سيَّما ما خالف فيه الأئمةَ الأربعة اغترارًا بدعواه، هذا مع اعتقادي مزيدَ جلالته، وفرط سعة اطِّلاعه، ورسوخ قدمه، وتمكُّنه من العلوم الشرعية وآلاتها، وأمَّا الاجتهاد فدونَه خَرْطُ القَتَاد)[1].

ثالثًا: أن العالِم قد يستشعر ثِقَلَ الأمانة وخوف دروس العلم وذهابه، خاصةً إذا وصل إلى (التمكن العلمي)، وحصل عنده من فقه النفس في فنٍّ من فنون العلم ما يدفعه للإفادة والنشر والرَّد، فيأتيه خوفُ كتمان العلم ليدفعه لأداء (الحق العلمي) الذي تعلَّق بما حصَّله، خلافًا لصورة (الغرور العلمي).

والمغرور لا يترك علمًا نافعًا، ولا تكاد تَشُمُّ منه رائحة الأمانة العلمية، خلافًا للعالم الراسخ الرُّبَّاني.

وعلى هذا المعنى يُحمل قول علي رضي الله عنه: (ما من آية إلَّا وأنا أعلم بليلٍ نزلت أم بنهار)[2]، وقول ابن مسعود: (لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل، لأتيته)[3].

قال القاضي أبو يعلى معقبًا: (فهذه الأشياء خرجت مخرجَ الشكر لله، وتعريف

(١) فيض القدير ١/ ١١، ١٢، بتصرف يسير.

(٢) رواه عبد الرزاق في تفسيره، ٣/ ٢٣٤، رقم (٢٩٧٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب الفضائل، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٤٧١٦)، ومسلم، كتاب الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما، رقم (٢٤٦٣).

المستفيد ما عند المُفيد)[1].

يوضحُهُ: أن المِدحة إذا خلت عن البغي والاستطالة على أهل الحق، وكان مقصود قائلها إقامةَ حقٍّ، أو إبطالَ جَور، أو إظهارَ نعمة، لم يُلَمْ. فلو أن قائلًا قال: إني لحافظٌ لكتاب الله، عالمٌ بتفسيره، وبالفقه في الدين -يقصدُ بهذا إظهار الشكر، أو تعريف المتعلم ما عنده ليستفيده، إذ لو لم يبين ذلك لم يُعلم ما عنده فلم يُطلب- لم يُستقبح ذلك. ولهذا المعنى قال يوسف عليه السلام: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾[2]، وقال نبيُّنا عليه السلام: «**أنا أكرم ولد آدم على ربه**»[3].

وقد أشار ابن الرومي إلى قريب من هذا المعنى في (ديوانه)، فقال:

وعزيزٌ عليَّ مَدْحِيَ نفسي
غير أني جَشَّمتُه[4] للدلاله
وهو عيبٌ يكادُ يسقط فيه
كلُّ حرٍّ يريدُ إظهارَ آله
وإذا المرء لم يلوح بما فيـ
ـه تخطاه رائد بجهاله[5]

---

(١) نقله عنه الحجاوي رحمه الله في شرح منظومة الآداب، ص٩١.

(٢) سورة يوسف، الآية: (٥٥).

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ٢٤٠.
والحديث رواه الترمذي، (كتاب المناقب: باب في فضل النبي ﷺ)، وقال: (حسن غريب)، رقم (٣٦١٠).

(٤) أي تكلفتُ ذلك الفعل على مشقة.

(٥) ديوان ابن الرومي ٣/ ١٤١. (مع إسقاط بيتين قبل البيت الأخير).

مواقف (يوسف) و(الخضر) عليهما السلام، و(الهدهد):

المواقف التي سطَّرها القرآن عنهم لا يفهم منها الغرور العلمي ولا الزهو؛ لأنها جامعة لأمور ثلاثة:

١ - الوحي.

فإن مواقفهم كانت عن وحي، كما في موقف يوسف والخضر عليهما السلام، وكانت علومهم يقينية راسخة فيما انبروا له، ثم هل يتصور حصول الغرور العلمي من نبيٍّ كيوسف والخضر عليهما السلام أو الهدهد؟!

فأمّا يوسف عليه السلام فقد سعى لإنقاذ أُمَّة مما هي فيه من ابتلاء ومجاعة وحذَّرهم، واتخذ المنصب سبيلًا لنشر التوحيد.

ويُستفاد من موقف يوسف عليه السلام أن العالم قد يحتاج إلى إظهار ما عنده من العلم والفضل ويبين رتبته للمصلحة والنفع، فمن استشعر أن لديه علمًا لا بد أن يؤديه بتواضعٍ وأمانة.

وأمّا الخَضِر فكان فعلُه بوحي أوحاه الله إليه، وهو مقام تعليم يحتاج فيه المعلم أن يبين للمتعلم حاجتَه إلى الدرس والإفادة، ثم إن مسلك الخضر مع موسى عليهما السلام كان مسلك تأديب وتعليم، من جنس ما يفعله المعلم مع التلميذ؛ من حثِّه على الصبر على العلم والتأنِّي في فَهمِه، فكان منه أن قال: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝ ﴾[2]. وذلك كلُّه يفسَّر في نطاق الوحي، والتأديب من الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام.

(١) سورة الكهف، الآية: (٦٧).

(٢) سورة الكهف، الآية: (٦٨).

ويُستفاد من موقف موسى والخضر عليهما السلام أنه علاج للفاضل عندما يَظنُّ أنه أعلمُ من غيره، فيُعلَّم أنه يوجد مَن هو أعلم منه، وفضلُ الله واسع.

وأمَّا الهدهد: فإنه قد آلَمَه أن رأى القوم يعبدون الشمس من دون الله عزَّ وجلَّ، فهرع إلى سليمان عليه السلام بنبإٍ يقين؛ ليُنذرهم ويحذِّرهم، ويدعوهم إلى عبادة الله وحدَه.

ويُستفاد من موقف الهدهد: أنه ليس من شرط الأفضل ألَّا يُنبِّهَه المفضول لأمرٍ من الأمور[1]، فالمفضول قد يَعلم ما لا يعلمه الفاضل، فيَقبَل الفاضل من المفضول، ولا يغترُّ المفضول بفضل العلم الذي أعطاه الله إيَّاه[2].

فكان ابتلاءً له عليه الصلاة والسلام في علمِه، وتنبيهًا على أنَّ في أدنى خلقِه تعالى وأضعفِهم مَن أحاطَ علمًا بما لم يُحِط به؛ لتتحاقر إليه نفسُه، ويتصاغر إليه علمُه، ويكون لُطفًا له في تركِ الإعجاب الذي هو فتنةُ العلماء[3].

٢- النفع المتعدي:

كانت أعمالُهم ذاتَ نفعٍ متعدٍّ، وليس فيها حظٌّ شخصي أو مأرب ينتهض لتحصيله. يقول ابن عبد البر رحمه الله: (ومن أدب العالم تركُ الدعوى لما لا يُحسنه، وتركُ الفخر بما يحسنه إلَّا أن يضطر إلى ذلك، كما اضطر يوسف -عليه السلام- حين قال: ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[4]، وذلك أنه لم يكن بحضرته من يعرف حقَّه فيُثني عليه بما هو فيه ويُعطيه بقسطه، ورأى هو أن ذلك المقعد لا يقعده غيره من أهل وقته إلَّا قصَّر عمَّا يجب لله عزَّ وجلَّ من القيام به من حقوقه، فلم يسعه

(١) منهاج السنة النبوية ٦/ ٧٦- ٧٧. (٢) من إفادات شيخنا الشيخ ساعد غازي

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٦، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٨٠، والبحر المحيط ٧/ ٦٣.

(٤) سورة يوسف، الآية: (٥٥).

إلّا السعي في ظهور الحق بما أمكنه، فإذا كان ذلك فجائزٌ لعالِمٍ حينئذٍ الثناءُ على نفسه، والتنبيه على موضعه، فيكون حينئذٍ تحدُّث بنعمة ربِّه عنده على وجه الشكر لها)[1].

٣- القرائن المحتفَّة بمواقفهم منبئةٌ عن كونها خالصة:

إذ هي خِلْوٌ من ألفاظ الغرور ونَفَثَات العُجب، خلافًا لمن شحن أنفاسه بالزهو وملأ كلماته بدخيل الفخر؛ فنظراته زائغة، وكلماته مرتابة، وأنفاسه مضطربة. ثم إن النظر في مآلات الدعاوى كاشف عمَّا أُضْمِر؛ فمآلُها نفعٌ عامٌّ متعدٌّ وليس بنفعٍ قاصر فيبني لنفسه صرحًا مُذْهبًا، وليست عباراتهم كذلك محضَ إعلامٍ بحِفظ الرُّتَب، أو استنهاضًا لبذل رسوم التعظيم، بل كانت تدور بين سعيٍ لنشر دعوة التوحيد وتقويض الشرك، أو نجاة أُمَّةٍ، أو تأديبٍ للمتعلم، فثلاثتُها نفعٌ متعدٌّ. والقرائن تكشف مرةً تِلْوَ أخرى عن مخبآت الضمائر؛ فما استقرَّ عجبٌ وإعظام وتكبُّرٌ إلَّا وهو مُخامِرٌ للأقوال والأفعال؛ بزَهْوِه ونفخه؛ ليصبغ بها كلَّ شاردة وواردة من عبارة وإشارة، وهو هنا مُنتَفٍ.

٣- الأوهام العلمية.

فمن ضمن الحصاد حصادُ الأوهام العلمية، وهي كثيرة، فمنها:

- وهم الاستقراء:

وهو من أخطر الأوهام التي قد تحلُّ بساحة الطالب كنتيجةٍ للغرور الذي ابتُلي به.

فترمز دلالة كلمة **(الاستقراء)** إلى **(تتبع)** و**(تمحيص)** و**(استدلال)** و**(تأمل جزئيات)** و**(حصر)**.. إلخ. فمَن تأمَّل هذه المفردات عَلِمَ أن إطلاقها بسهولة ينسجم بقوة مع نفسية المغترِّ بعلمه؛ لذا كان على الطالب الأريب المعتني الحذر من الوقوع في شَرَك الاستقراء الموهوم.

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧٦.

والاستقراء يدَّعيه اثنان:

أحدهمـــا: عالم بالفنِّ ومســـائله وعبـــارات المصنِّفين فيه. فهـــو مقبول منه، ويخضع لمعايير البحث والتتبع.

والثاني: دعيٌّ ليس من أهل الاستقراء، فهذا الذي ينبغي أن يُحذر منه.

وإذا كنَّا بصدد تحذير أهله من شَـــرَك الاستقراء وأوهامه، فما ظنُّك بمن تقحَّم البـــابَ وليس من أهله؟! فهو أحرى ألَّا يقبل منه، ويحذَّر من مغبَّة فعله، وجنايته على العلم.

* * *

من صور أوهام الغرور الاستقرائي الاعتمادُ على استقراء الموسوعات البحثية الإلكترونية وغيرها من مسهلات البحث العلمي الحديث.

وهذه من المضحكات المبكيات؛ أن يظن باحثٌ أنه بالبحث في (الموســـوعة الإلكترونية) عن كلماتٍ بعينها أنه قد حصر واســـتقرى! ثم يقف بعدها متعجلًا على منبره الخاص متشبعًا بغرورٍ علمي مدعيًا (الاستقراء)، وأن المسألة ليس عليها دليل، أو أن مسألة كذا لم يذكرها أحد قبله، أو أنه لا يصحُّ حديثٌ في كذا، أو أن الراوي فلانًا لم يَرْوِ له فلان... أوهام تجرُّ وراءها آلامًا.

ولا يشك عاقل أن استقراء هذه الموسوعات استقراء مضلِّل، ففيها من الخطأ في الضبط والخطِّ ما هو معلوم، وفيها تصحيفات وسقطٌ كثير مطَّرد، ثم إن العلماء قد يُورِدون المسألة بغير اسمها وفي غير مظنتها، وغير ذلك من الوجوه.

- **وَهْم التصويب والتخطئة:**

فتجد من بعضهم هجومًـــا على التصويب والتخطئة لأقوال الأئمة والمذاهب

بلا رويّة ولا عقل لمرامي القول وعلّته، فيكون الدافع إلى ذلك الظهور بالعقلية الناقدة والذهنية الفذّة.

وخليقٌ بمن هذا حالُه، أن يقرأ هذا النص برَوِيَّةٍ تامَّةٍ ليَعقِل لسانَه وقلمَه بعقال التواضع، ويكفَّ نفسَه عن الخوض في العلم بلا رَوِية.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: (إذا نُقل إليك مذهب إمامٍ كبيرٍ من علماء الأمة فنفَـرَ طبعُك عن قبوله، وظهر لك بطلانُه بكلام جلـيٍّ ودليلٍ واضحٍ غير دقيقٍ ولا خفيٍّ، **فإيَّاك أن تَهْجُمَ على إنكاره**، وتشتغل باستبعاده واستنكاره؛ فإنك بين أن تحكم بخفاء ذلك الكلام الجلي على ذلك الإمام مع منصبه العلي وبين أن تقول: لعله اطلع على سرٍّ خفيٍّ ذهب عنّي ذلك السرُّ الخفي، فليت شعري أنت أجدر بالقصور عن درك المعنى الخفي أم الإمام الكبير بالذهول عن المعنى الظاهر الجلي؟! فإن أنصفتَ علمتَ وتحققتَ أن ذهاب الخفيات عليك أقرب إلى الإمكان من ذهاب الجليات عليه، فاتهم نفسك واحذر الجسارة والجرأة، ولا يكون عقلك أضعف من عقل الثعلب حيث رأى إليةً مطروحة في بريّةٍ فقيل له: بادرْ إلى طعامك والْتقم؛ فقد ظَفِرت بمطلوبك فاغتنم. فتوقف، وقال: إليةٌ في بريَّةٍ ما تُركت إلَّا لبليَّةٍ!)[1].

ثانيًا: الحصاد المَسلَكي:

١- البغي بالعلم.

وهذا حصاد الاشتغال بصورة العلم مع التفريط في الأعمال التعبُّدية؛ وذلك أن فقدان الحسِّ التعبديِّ هو تركٌ لتلك الحصانة الروحية والدعم المعنوي الحائل بين الطالب والبَغْي بالعلم، فلا يملك الطالب حينَها قُوًى تَحجُزُه عن السقوط في

(١) حقيقة القولين للغزالي، (ضمن منشورات مجلة الجمعية الفقهية السعودية)، العدد ٣، ص٢٧٣.

مهاوي الطغيان، لأنه استحال إلى صورةٍ جافَّة فاقدةٍ لرُوح العلم وأثره المسلكي، وسرُّ ذلك أن علوم الشريعة (لا تُراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قِيمة)[1].

لذا، كان التركيز على مقام العبودية؛ لأنه في الحقيقة حصانةٌ ومَنَعةٌ من البغي بالعلم، وذلك أن الطالب ما لم يمزج علمه وفَهمه بدِين وتألُّه ورقَّة تَاهَ بين الأفكار وتخطَّفته نوازع الأهواء، فبات يُمرِّر أشياء لا تتفق مع أبجديات الطلب وقواعد الشريعة، وأصبحت معارفُه سيفًا مُسلطًا على رقاب العباد، فلا يأخذ من الشريعة إلَّا عزماتها وزواجرها بلا ضابط ويترك رحمتها وحُسنها لانسجامها مع فكره وذهنه، والعكس أيضًا حاصل.

٢- شعور التميُّز.

فشعور التميُّز من أخصِّ أوصاف الغرور العلمي، وهو حقيقة الزهو، ومن صُوَرِه أن يجد في نفسه شعورَ تميُّزٍ على أقرانه وأبناء جيله، ويرى أنه من طراز فريد، وأن آراءه يجب أن تكون محطَّ دراسة وتأمُّل واهتمام من الناس، وأنه لا بد مِن نشرها وإطْلاع الناس عليها.

وهذه المعاني قد استجمعها أبو الطيب المتنبي في أبياته التي افتخر فيها بجودة شعره، فيقول:

وما الدَّهْرُ إلَّا مِنْ رُواةِ قَلائدي

إذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا[2]

(١) إحياء علوم الدين، ص١٣٠٦.

(٢) معناه: وما الدهر إلاَّ من رواة أشعاري التي هي كالعُقُود والأطواق، والقلائد في الأعناق، فإذا قلتُ شعرًا، فالدهر ينشُدُه معرفًا به، ويرويه مُقيِّدًا له، ويُبقيه ما بقيتِ الأيامُ، ويخلدُهُ، ما أعْملت الأقلامُ. شرح معاني شعر المتنبي لابن الأفليلي ٢/ ٢٠٤.

أَجِـزْنــي إِذَا أُنْـشِـدْتَ شِـعْـرًا فإنَّما
بِشِـعْرِي أَتَــاكَ المادِحُـونَ مُرَدَّدَا[1]
وَدَعْ كُلَّ صَـوْتٍ بَعْـدَ صَوْتـي فإنَّنِـي
أَنا الطَّائرُ المَحكِيُّ والآخَرُ الصَّدَى[2]

* * *

جاء في ترجمة (تاج الدين أحمد بن أبي الفرج بركات الفارقاني) أنه كان (كثير الزهو والإعجاب بنفسه والتعاظم، بحيث كان الشخص إذا كلَّمه وهو راكبٌ أَمَرَ بضربه بالمقارع، فصنع ذلك مرتين أو ثلاثة، فلم يَجسُر بعد أحد أن يتحدَّث معه وهو راكب، وإذا نزل ودخل منزله لم يجسر أحد على الهجوم عليه، فتصير الناس على اختلاف مراتبهم على بابه حتى القضاة، فصار مهابًا جدًّا، ومع ذلك فلا يقبل هدية، ولا يخالط أحدًا، ولا يجتمع مع غريب ويقتصد في ملبسه)[3].

ومن جنس شعور التميُّز: ما حُكي في ترجمة (الحجاج بن أرطاة)، فكان ذلك مُزرِيًا به مُنقِصًا لرُتبته وسببًا في تأخيره، إذ كان لا يحضر الجماعة، فقيل له في ذلك، فقال: أحضر مسجدكم حتى يُزاحمني فيه الحمَّالون والبقَّالون.

---

(١) يقول لسيف الدولة: أجزني عما تنشده من الأشعار، فإنها من أشعاري، مسترقة، ومما أُبدِعُهُ فيك مقتطَعَةٌ؛ لأني قد سبقتُ فيك إلى بدائع النَّظم، وقصرتُ عليك محاسنَ الشعر، فالمادحُ إنما يأتيك بطرفٍ مما قلتُه، ومُسترَقٍ مما خلَّدتُه. شرح معاني شعر المتنبي لابن الأفليلي ٢/ ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) أي ودع أصوات الناس بعد إنشادي إيَّاك. فإني فيهم السَّابقُ المُتَّبَعُ، وشِعري المحكيُّ به الممثَّلُ، وحَالي فيهم حالُ الطائرِ الغَرِدِ، وهم كالصَّدى الذي يمثلُهُ ويتلُوهُ، ويتَّبعُهُ ويَقفُوهُ. شرح معاني شعر المتنبي لابن الأفليلي ٢/ ٢٠٥.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/ ٢٣٤.

ونقــل غير واحد: أن الحجــاج بن أرطاة قيل له: ارتفــع إلى صدر المجلس. فقال: (أنا صدرٌ حيث كنت). وكان يقول: (أهلكَني حبُّ الشرف)[1].

ومن أوابده ما ذكر الشافعي رحمه الله عنه أنه قال: (لا تتمُّ مروءة الرجل حتى يترك الصلاة في الجماعة)!.

فعقَّب الذهبي قائلًا: (لعن الله هذه المروءة، ما هي إلَّا الــحُمق والكِبر كيلا يزاحمه الســوقة! وكذلك تجد رؤســاء وعلماء يصلُّون في جماعــةٍ في غير صفٍّ، أو تُبسط له سجادة كبيرة حتى لا يلتصق به مسلم - فإنا لله!)[2].

وقال الذهبي أيضًــا: (هذه كلمة مقيتة، بل لا تتم مروءة الرجل ودينه حتى يلزم الصلاة في جماعة. وهذا قاله حجاج لما في طباعه من البذخ والرئاســة؛ فإنه يرى أن صلاته في جماعة ومزاحمته للســوقة في الصفوف ينافي ما فيه من التِّيه والتَّرف، فالله يسامحه)[3].

* * *

المغرور يعيش عالمًا من الوحدة القاتلة وخواءً إنسانيًّا فهو لا يرى إلَّا ذاته؛ فهو مُنهَمِكٌ في كيانه وكينونته، يراقب صنمه الداخلي، ويتحسَّس مجدَه ويَذُود عنه، وهو نتاج الكبر، فـ(الأنا) الاستعلائية هي التي ابتُلي بها إبليس، وقال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ ﴾[4]، مع كونه قياسًا فاسدًا واستدلالًا باطلًا.

فهل من المنتظر ممن يعظِّم نفسَــه ويدَّعي فيها التميز إلَّا أن يمتلئ قلبُه بالحقد والانعزال؟! بل -والله- إنــه قصور الفكر والعلم، وانحســارُ معاني الوُدِّ والتعاون والإيثار.

(1) سير أعلام النبلاء ٧/ ٧٤.
(2) سير أعلام النبلاء ٢/ ٧٢.
(3) تاريخ الإسلام ٩/ ١٠٢.
(4) سورة الأعراف، الآية: (١٢).

٣- التطاول والتّعالي:

إنِّـــي لَأغـلــقُ عيني ثــمَّ أفتَـحُـها

علـى كثيـرٍ ولكـنْ مـا أرى أحَـدَا

دِعبل الخزاعي[1]

حكـــى أحد أدباء الروس عـــن رجلٍ كان يقطن إحدى المـــدن وكان ضعيفَ العقل. وقد كان الناس لا يُمســكون عن الخوض في أمره، والتحدث بتخلُّفِ ذهنه وغِلَـظِ عقله، فكرَبَهُ ذلك وســاءَه، وأحبَّ أن يغير رأي الناس فيــه، فلم يزل يُعمل فِكـــرَه حتى وصل مع طول التفكر والتدبُّر إلى ما هو خليـــقٌ بأن يبلغه أُمنيَّتَه ويحقق له غايته ورغبته. وذلك أنه صار كلَّما لَقِيَ واحدًا من معارفه وإخوانه يستسخف رأيَه ويســتجهله، فإذا ذكر أمامه كتابًا ورأى أنه يستجيده قال له: هذا كتاب سخيف، ليس فيه معنى ولا وراءه محصول، وإنك إذ تستحســنه وتســتجيده لتدلّ برأيك فيه على تخلُّفــك عن عصرك وتأخُّرِك عنه. وإذا امتدح أحدٌ صورة على مســمع منه انبرى له بالتنقُّص والاغتماض، قائلًا: ليس في هذه الصورة شــيء يُســتجاد، وإنك بمدحك إيَّاها وإكبارك لها لتثبت أنك متأخِّرٌ عن عصرك. وهكذا ظلَّ صاحبُنا يستهجن كلَّ ما يستحســـنه الناس، ويتَّهمهم بضَعْفِ العقل، ويرميهم بالقصور والتخلُّف عن الزمن، ويجهـــل ما عفى عليه من الآراء، وجدَّ عليه من الحقائق، فيمضون عنه وهم خَجِلون من سِـــقَاطِهم وعثراتهم، حتى أكبروا عقلَه، وإن أفزعتهـــم وقاحتُه وراعَتْهم جرأته. ويلغ من نجاح صاحبنا فيما قصد إليه أن صاحب جريدة اســتكتبه، وسأله أن يوافِيَه بآرائه في الأدب والفنون والاجتماع! فلم يَحِدْ عن خطته التي رســمها لنفسه، وهي تنقُّص كلِّ عمل ورَمْيُ مســتجيديه بالتخلُّف، وعدم الاطلاع على أحدث الآراء التي

(١) العقد الفريد ١/ ٢٣٦.

أنتجها العصر! فصار قوةً لا يملك إهمالَها الكتَّاب والمؤلِّفون والمصوِّرون وسائر الفنِّيين[1].

وهذه الصورة موجودة بكثرة، وفيها سعيٌ دؤوب لإبراز الأحقِّيَّة والرُّتبة بطريق عكسي، فيتطاول على الكبار والصغار، وينال من كل من توهمه يشغب عليه حظُّه وزهوه.

ولا ينفك المتطاول على المنتسبين إلى العلم من صنعةِ تدليس ينفثها بليل، فما تطاول أحد على أهل العلم والفضل إلَّا أوتي تدليسًا في ليل دامس، قوامُه صناعة طاغوت داخلي، ولا تذهب الظنون بك بعيدًا لتتخيل طاغوتًا في صورة شيطان، بل إنه طاغوت في صورة (طالب)، و(داعية)، و(مؤلف)، ليظهر على أغمار الناس في غمرات الجهالة، مدَّعيًا أحقِّيَّته وفضلَه، خاتنًا لقانون العلم والمنتسبين إليه. وهذا -بلا شك- مُسقِطٌ للكرامة، مُرْدٍ عن بلوغ الكمالات لا رافعٌ إليها!

ومن أبجديات المغرور أنه يلاحق فضائل الفضلاء ومحاسنهم، لا ليُثبتها بل ليشكِّك فيها، ويقدح النار في مصداقيتها، لكأنها نار الحسد تحرق كلَّ ما علاه وتجاوزه.

وقد قيل:

ليس التطاولُ رافعًا من جاهلٍ

وكذا التواضع لا يضرُّ بعاقلٍ

* * *

ترجم ابن فضل الله العمري رحمه الله لأحدهم، فقال: (وجلس للناس، وقد

(1) حصاد الهشيم، إبراهيم عبد القادر المازني، ص ١٩.

لبس رداءَ الكبرياء، [وسُلب بحُمقِه وقارَ الكُبَراء][1]، فأحرج الصُّدور عليه وعلى مَلِكِه، وأحوَجَ المقدور بما لديه إلى مهلكه، فتميَّزت الخواطر عليه غيظًا، وأبرزت الضمائر له بَرْد القلوب قيظًا، فأودع النفوس ودائعَ الحَنَق، وأترع له الدهر العبوس مشارع الرَّنَقِ... وكان ينتقص الفاضل والعماد وسائر الكتَّاب، **ويحطُّ قَدْرَ الأفاضل، ويسخر بالناس**)[2].

كأن التنقُّص والحطَّ والسخرية نتاجُ غروره وتكبُّره، أو قُلْ من لوازمه.

ومن صور التطاول: الوقوع في الأئمة ونبذُهم واحتقارُ أفهامهم، ومما وقع في ذلك مما حكاه شمس الدين الذهبي رحمه الله في ترجمة أحد من ابتُلي بهذا الوصف: (وقال الحافظ ابن عساكر: كان العبدري أحفظَ شيخٍ لَقِيتُه، وكان فقيهًا دَاوُدِيًّا، ذكر أنه دخل دمشق في حياة أبي القاسم بن أبي العلاء، وسمعته وقد ذُكِرَ مالك، فقال: جِلفٌ جافٌّ، ضرب هشام بن عمار بالدِّرَّة، وقرأت عليه «الأموال» لأبي عُبَيد، فقال -وقد مرَّ قولٌ لأبي عبيد-: ما كان إلَّا حمارًا مغفَّلًا، لا يعرف الفقه. وقيل لي عنه: إنه قال في إبراهيم النخعي: أعورُ سوءٍ، فاجتمعنا يومًا عند ابن السمرقندي في قراءة كتاب (الكامل)، فجاء فيه: وقال السعدي كذا، فقال: يكذب ابنُ عدي! إنما ذا قول إبراهيم الجُوزَجَاني، فقلت له: فهو السعدي، فإلى كم نحتمل منك سُوءَ الأدب، تقول في إبراهيم كذا وكذا، وتقول في مالك: جافٌّ، وتقول في أبي عبيد؟! فغضب وأخذته الرِّعْدَةُ، وقال: كان ابن الخاضبة والبَرْدَاني وغيرهما يخافوني، فآلَ الأمر إلى أن تقول فيَّ هذا؟! فقال له ابن السمرقندي: هذا بذاك. فقلت: إنما نحترمك ما احترمت الأئمة. فقال: والله، لقد علمت من علم الحديث ما لم يعلمه غيري ممن

(١) هكذا في طبعة (المجمع الثقافي) وأما في طبعة (دار الكتب العلمية) ١٢/ ٢٠٤: (وسَلَب بحمقِهِ، وقاد الكبراء).

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١٢/ ٢٧٠.

تقدَّم، وإني لَأعلم من «صحيح البخاري» و«مسلم» ما لم يعلماه. فقلت مستهزئًا: فعلمُك إلهامٌ إذًا!! وهاجرته)[١].

* * *

قد يقع التطاول على الأئمة والعلماء من بعض أهل العلم ممن كانت فيه حِدَّةُ الطبع، كما وقع من ابن حزم رحمه الله أو غيره، لكن العلماء رحمهم الله لم يوافقوه علـى هذا الصنيع، فهو مع إمامته وفِقْهِه وتمكُّنه لم يُقبل تطاولُه وطعنُه في العلماء مع تملُّكِه لأدوات العلم والاستنباط والفَهم، فلا يَليق بمن هو في عداد صغار الطلاب من المنتسبين إلى العلم أن يقلده في ذلك.

يقول الذهبي رحمه الله: (ابن حزم رجلٌ من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة، تقع له المسائل المحرَّرة والمسائل الواهية كما يقع لغيره، وكل أحد يؤخذ من قوله ويُترك إلَّا رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد امتُحن هذا الرجل وشُدِّد عليه وشُـرِّد عن وطنه، وجَرَتْ له أمور، وقام عليه الفقهاء لطول لسانه واستخفافه بالكبار، ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأفجِّ عبارة وأفظِّ محاورة وأبشع ردٍّ)[٢].

- التعالي على الشيخ المعلم:

لا يتعالـى على معلِّمِه إلَّا من أوتي قدرًا من الوضاعة، فإنَّ نبالة العلم لا تُوائم الجبلَّة الفاسـدة الكامنة في نفس المتعالي، فـكأن العلم لم يرطب جفاف قلبِه بعدُ، أو يُذهب وحشيَّ أخلاقه ورعونتها، فهو يَعَضُّ بلسانه يدًا امتدَّت بخيرٍ وإحسان إليه يومًا.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٨٠، ٥٨١.

(٢) تذكرة الحفاظ ٢/ ٢٣١.

وقد قيل: (لا يستخفُّ أحدٌ بمن تعلَّم منه علمًا إلَّا وضيعٌ خامل، أو رفيع جاهل)[1].

وذكر في ترجمة أبي بكر بـن الدَّهَّان النحوي الضرير [المبـارك بن المبارك بن سـعيد بن أبي السـعادات الوجيه] (ت ٦١٢هـ) رحمه الله، أنـه: (كان قليلَ الحظِّ من التلامذة، يتخرَّجون به ولا يُنسبون إليه. وكان جيِّدَ القريحة، حادَّ الذِّهن، متضلِّعًا في علومٍ كثيرةٍ، إمامًا في النحو واللغة والتصريف والعروض ومعاني الأشعار والتفسير والإعراب وتعليل القراءات، عارفًا بالفقه والطبِّ والنجوم وعلوم الأوائل، وله النظم والنثر الحسن؛ حسـن التعليم، طويل الروح، كثير الاحتمال للتلامذة، واسع الصدر، لم يغضبْ قطُّ من شيءٍ، وشاع ذلك حتى بلغ بعض الخلفاء، فجهد على أن يُغضِبَه فلم يقدرْ!

وكان حنبليًّا، ثم تحوَّل حنفيًّا، ثم لما درَّس النحو بالنِّظاميَّة صار شـافعيًّا؛ لأنه شرط الواقف، فقال فيه تلميذه أبو البركات محمد بن أبي الفرج التِّكريتي:

ألا مـبـلـغٌ عـنِّـي الـوجـيـه رسـالـةً
وإنْ كان لا تُجـدي إليـه الرسـائلُ

تمذهبـت للنُّعمـان بعـد ابـن حنبـلٍ
وذلـك لـمَّـا أعـوزتْـك الـمآكـل

ومـا اختـرت رأيَ الشافعي ديـانةً
ولكـنْ لأنْ تهوى الـذي منه حاصل

وعـمَّـا قـلـيـلٍ أنـت لا شـكَّ صـائرٌ
إلـى مالـكٍ؛ فافطـنْ لما أنـا قائل

(١) محاضرات الأدباء ١/ ٩١.

قال جلال الدين السيوطي رحمه الله، معقِّبًا: (هكذا تكون التَّلامذة، يتخرَّجون بأشياخهم، ثم يهجونهم! لا قوَّة إلَّا بالله)[1].

* * *

وإذا كان الطالب مأمورًا بالتواضع والأدب العلمي مع معلِّمه، فإن معلِّمَه أيضًا مأمور بقَبول الحق منه، والتواضع العلمي له بلا تكلُّف أو ضجر، فإنه (ما زال المتعلِّمون ينبِّهون معلِّمَهم على أشياء، ويستفيدها المعلم منهم، مع أن عامَّة ما عند المتعلِّم من الأصول تلقَّاها من معلِّمه، وكذلك الصُّنَّاع وغيرهم)[2].

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي ٢/ ٢٧٢، وانظر: مدارج التعلم، ص٢٠٧ وما بعدها.

(٢) منهاج السنة النبوية ٨/ ٢٧٤.

علاج الغرور العلمي

علاج أدواء النفوس محفوفٌ بحظٍّ من الصعوبة، كما أن هذه الصعوبة درجات، وتختلف بقَدْرِ عُمقِها وتأصُّلها واصطباغها بالشخصية؛ وهي من الكُمُون بمكان، فلا تُصادف -غالبًا- إلَّا قابعةً متخفِّيَةً مكنونة في الضمائر، ولا تدركها شـمس الضحى، وسرُّ ذلك أنه (في زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس)[1].

وممـا يدفع أيضًا إلى أخـذ العلاج على محمـل الجد، أن الناظـر فيه يجد أنـه في الحقيقة عـدة أدواء تحتاج إلى مراحل مرتبة؛ فكان النظـر إلى ما يغذِّي مادة الشـر بتجفيفها، ثم إلى المرض باستئصاله، ثم إلى القلب بتحصينه، فإذا هي: (سدٌّ وتجفيف)، ثم (اقتلاع واستئصال)، ثم (غرسٌ وتحصين).

تنبيهات:

لإتمام العلاج على سداد يتعيَّن:

التماس مُرَبٍّ حاذق:

ليعلم العبد الذي أراد نجاة نفسه واقتلاع بذرة هذا الوباء من جسده أنه لا بد من عالِم مُـرَبٍّ، فلا يكتفي بعالم فقط، بل لا بد من مُرَبٍّ يُداوِيه، ويُقدِّم له خبرته، والتي هي من جنس فِعل الأطباء، ليقدم له النصيحة والتي لها دورٌ فعَّال في البُرْء والشفاء.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص٢٤١.

بذل الجهد:

فإنه لا بد من الاجتهاد الشخصي في التماس النجاة من هذا الداء، بالقراءة عنه وعن أترابه وأضداده، واستماع المواعظ والنصائح، ومحاسبة النفس.

الاقتناع بأهمية العلاج:

فمِن آكد القضايا التي يجب التنبُّهُ إليها أهمية الاقتناع بعلاج النفس، وكذلك الاقتناع بصعوبته؛ فإن هذه الأدواء إذا طالت مُدَّتُها استحكمت وامتدَّت جذورها في مسارب الأقوال والأفعال، فتمسي وتصبح ولها بصمات الاعتياد في تلك النفوس، فتَمْجَل مع كثرة التناول بعلاماتٍ يصعب فصلُها، و(الفطام عن المألوف شديد، والنفوس عن الغريب نافرة)[1]. وأصل ذلك أن (الإنسان قد تبتدر إليه في شبيبته المساوئ، وقد يغلب عليه ما بَدَرَ إليه منها للعادة؛ فإن لترك العادة مؤونة شديدة ورياضة صعبة)[2].

ومن أعسر الأمور على الإطلاق إقناعُ المغرور أنه مغرور، وتفهيمُه أنه يجب الانتباه والعلاج؛ لذا كان أمر استشعار خطورة الداء وحتمية العلاج هام جدًّا؛ إذ كيف يبرأ من لا يعتقد أنه مصاب؟! وكيف يسلم من انتكاساته أو يشرع في الاستئصال من لا يعترف بخطره؟!

لذا، فإن أول العلاج استشعار الداء واستحضار آفات النفس، ومحاسبتها، والدأب على استنطاقها، واستخراج مكنوناتها الحقيقية بجلسات مطولة تفصيلية تقريرية تكشف عن أصل العلة ومنبعها وموطنها وأثرها في القول والفعل.

المرحلة الأولى: سدُّ الذرائع.

يأتي سدُّ ذرائع الغرور كمرحلة أوَّلية لتجفيف الأسباب المُفْضِيَة إليه؛ إذ كيف

(١) المستصفى ١/ ٢٨- ٢٩.

(٢) الأدب الكبير والأدب الصغير، ص١٦.

ينجع العلاج مع قيام سببه الذي يغذِّيه؟! (فإذا قَطَعَ أسبابَ الكِبرِ وحَسَمَ موادَّ العُجبِ اعتاض بالكِبرِ تواضعًا وبالعُجب توددًا)[1].

فعلى مـــن ابتُلي بهذا الداء أن يقف مع نفســه وقفةَ حســابٍ وتمحيص، وأن يصدقها النُّصح، ويتأمل في مـــآل أفعاله هذه، وكيف أنها مُهلِكَةٌ لدينه ومُفْسِــدَةٌ له، وأنها باب عظيم لحبوط العمل، إلى غير ذلك من أبواب الشـر التي يُثيرها هذا الداء على العبد. فالمنصفُ لا يُخدع ببريقِ الغرور، وهو منصفٌ مع نفسه كحالِه مع غيره، فلا يرى لنفســه فضلًا، وهو محاسِبٌ نفسَــه على اللَّفظة والفِعلة، بل والفَلتة التي قد يتعثَّر بها اللسانُ والفؤاد.

* * *

والطالب يحتاج إلى سدٍّ وتجفيفٍ لعدة منافذ:

١- سدُّ ذرائع الخلطة المفسدة.

الخلطةُ معبر من مَعَابر الزهو والغرور؛ وســرُّ ذلك كون الخلق مجبولين على التزيُّــن لبعضهم البعض، ويُحَسِّــنُ بعضهم ظاهره أمام إخوانــه وأقرانه، بخلاف ما إذا كان الشـــخص منطويًا على نفســه في بيته، فقد يترك التزيُّــن ويتعامل على فطرته وسجيته، ويترك كُلفة الشكل، من هنا كانت الخلطة معبرًا من معابر الزهو والاغترار.

فالتزين بالعلم والفَهم والاطلاع يعظم الوسيلة إلى الغرور، ويدفع إليها دفعًا، خاصــة في مجالس المطارحات واللقاءات التي تحتاج إلى اللَّســن والبيان؛ لذا كان دَيْدَنُ السَّلف الفرار مما يُعكر صفوَ الإخلاص، ويُعقِب الزَّهو.

عن علي بن الحسن، قال: بلغ الفضيل رحمه الله أن حُريزًا يريد أن يأتيه، فأقفل

(١) أدب الدنيا والدين، ص٢٩١.

الباب مـــن خارج، فجاء، فرأى الباب مقفلًا، فرجع، فأتيته، فقلت له: حريز. قال: (ما يصنع بي، يُظهر لي محاسنَ كلامه، وأظهر له محاسن كلامي، فلا يتزين لي، ولا أتزين له، خير له). ثم قال علي: ما رأيت أنصحَ للمســلمين، ولا أخوفَ منه، ولقد رأيته في المنــام قائمًا على صندوق يعطي المصاحف، والناس حوله، فيهم ســفيان بن عيينة، وهارون أمير المؤمنين، فما رأيته يودِّع أحدًا، فيقدر أن يُتم وداعه.

قال فيض بن وثيق: ســمعت الفضيل يقول: (إن اســتطعت ألَّا تكون محدِّثًا، ولا قارئـــًا، ولا متكلمًـــا؛ إن كنت بليغًا، قالوا: ما أبلَغَه، وأحســـنَ حديثَه، وأحســـن صوته! فيُعجبك ذلك، فتنتفــخ. وإن لم تكن بليغًا ولا حَسَـــنَ الصوت، قالوا: ليس يُحســـن يحدِّثُ، وليس صوتُه بحســـن، أحزَنَك ذلك، وشـــقَّ عليك، فتكون مرائيًا. وإذا جلســـت، فتكلمت، فلم تُبَالِ مَن ذمَّك، ومَن مدحك، فتكلَّم)[1]. فرضي الله عن السلف ورحمهم.

ومن عبير الإمام أحمد رحمه الله تعالى مـــا قاله المرُّوذي رحمه الله: ذكرت لأبـــي عبد اللَّه عبدَ الوهاب علـــى أن يلتقيا، فقال: (أليسَ قد كَـــرِهَ بعضُهم اللقاءَ؟)، وقال: (يتزين لي وأتزين له، كفى بالعُزلة علمًا، الفقيهُ هو الذي يخاف اللَّه)[2].

وعبد الوهـــاب هذا هو عبد الوهاب بن عبد الحكم الوراق، من خواصِّ الإمام أحمد.

بل قال الإمـــام أحمد للمرُّوذي: (ما أبالي ألَّا يرانـــي أحد ولا أراه، وإن كنت لأشـــتهي أن أرى عبد الوهاب)[3]. ويقول: (رجل صالح، مِثلُهُ يوفَّق لإصابة الحقِّ)،

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٣٣.
(٢) مناقب الإمام أحمد، ص٣٧٥، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٦ وانظر أيضًا: ١١/ ٣٠٥.
(٣) مناقب الإمام أحمد، ص٣٧٤.

ويقــول أيضًا: (عافاه الله، قلَّ أن تَرى مِثلَه)[1]. ومع ذلك يســدُّ باب الخلطة؛ لكونها كما علَّل رحمه الله: (يتزيَّن لي وأتزيَّن له).

وهذا من أئمة العلم والصلاح!

فكيــف الحال مع خلطة أهل الدنيا والدينار، ومن ليس لهم حديث إلَّا الزواج والمسيار؟! ولا شــك أن الأمر أعظم؛ (فامتلاءُ القلب من دُخَان أنفاس بني آدم حتى يَسْوَد يوجب له تشــتُّتًا وتفرُّقًا، وهمًّا وغمًّا، وضعفًا، وحملًا لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسُّمَ فكرُه في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟!)[2].

ومَن تأمَّل سِــيَر السَّــلف تبيَّن له أنهم كانــوا أكثر الناس هربًا من مفســدات القلوب والأعمال، فقد ذكر أن قومًا مشــوا خلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: (أبعدوا عنِّي خَفْقَ نِعالِكم؛ فإنها مفســدةٌ لقلوب نَوْكَى الرجال)، ومشوا خلف ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: (ارجعوا، فإنها ذِلةٌ للتابع وفتنةٌ للمتبوع)[3].

٢- سدُّ ذرائع المديح والثناء.

فعبــارات المديح والثناء مزالــق يهوي بها العبد فــي دركات الزهو والغرور لا محالة، ومــا ابتُلي عبدٌ بالغرور إلَّا وكانت عبــارات المدَّاحين هي المتهم الأول، خاصة من كانت طبيعته تُساعد على ذلك.

ومَن تأمَّل سُنة النبي ﷺ وهدي السَّلف رأى كيف كانوا يحسمون مادة الغرور بوَأْدِ المقدمات وســد الذرائع، حتــى إنها تُبهر المطَّلِعَ على تلــك الأحوال، فكانوا لا يَدَعُون بابًا مُشرعًا تُشرف منه تلك الأدواء.

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٢٤.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٥٢.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص٢٨٨.

فليست للعبد جُنَّةٌ يعتصم بها فرارًا من المدائح المُفْضِيَة إلى العُجب إلَّا أن يستجنَّ بدرعٍ من الكتمان؛ كتمان الإنجازات الشخصية، وكتمان دعاوى الأهلية، وكتمان الإشادة، ولا يَسْهُل هذا إلَّا على مَن صَدَق اللهَ تعالى في سدِّ منافذ المدائح واستطرابها، وحَبْسِ الأذن واللسان.

ولا تظننَّ الكتمان سهلًا على النفس؛ بل قد يُطلق عليه (كَرْبُ الكِتْمان)، كما فعل الجاحظ، وذكر أمثلةً لبعض العقلاء ممن كُربوا بكتم أسرارهم أو علومهم[1]؛ وذلك أن الإنسان مجبول على الإخبار، (فإذا باح بسرِّه فكأنه أُنشط من عِقال، ولذلك قيل: (الصدر إذا نَفَثَ برأ) مثلًا مضروبًا لهذه الحال)[2].

- نُبَذٌ في سدِّ ذرائع المديح.

فهَاك نُبَذًا من مأثور السُّنَّة وعبير السَّلف تُبين كيف كانوا يدفعون صرير المدائح بسدِّ المنافذ والثقوب التي تعبرُ منها إلى فضاء القلب والنيَّة، ويزجرون المادح وكأنه القادح الشانئ، فمن ذلك:

١- (هوِّن عليك...):

وأصل ذلك كما قال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فكلَّمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: «هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القَديد»[3]. وهذا إنما قاله ﷺ للرجل كما قال الماوردي رحمه الله: [illegible] حسمًا لمواد الكِبْر، وكسرًا لذرائع الإعجاب، وكسرًا لأَشَرِ النفس، [illegible][4].

(١) كتمان السر وحفظ اللسان (ضمن رسائل الجاحظ) [illegible].
(٢) كتمان السر وحفظ اللسان [illegible].
(٣) رواه ابن ماجه برقم (٣٣١٢) [illegible].
(٤) أدب الدنيا والدين، ص [illegible].

٢- (ويلك! قطعت عنق صاحبك...).

وأصل ذلك حديث أبي بَكْرَةَ رضـي الله عنه، قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ، فقال: «**ويلك قطعت عنقَ صاحبك، قطعت عنق صاحبك**»، مرارًا، ثم قال: «**من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكِّي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه**»[١].

٣- (اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفـر لي ما لا يعلمون، واجعلني خيرًا مما يظنون)[٢].

٤- (حُبي لك يمنع من الثناء عليك)[٣].

٥- (أقبِلْ على شأنك)[٤].

٦- (لم أبلغ أنا ذاك)[٥].

(١) رواه البخاري رقم (٢٦٦٢)، ومسلم رقم (٣٠٠٠).

(٢) كان الرجـل من أصحاب النبي ﷺ يقولها إذا زُكّي. وقد رواها البخاري في الأدب المفرد، رقم (٦٧١)، والبيهقي في شـعب الإيمان ٤/ ٢٢٨، بزيادة: (واجعلني خيرًا مما يظنون). وصححها الألباني فـي (صحيح الأدب المفرد)، برقـم (٥٨٥). وقد رويت عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قالها لمن مدحه بلفظ: (اللهم أنت أعلم بي مني بنفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرًا مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون). انظر: تاريخ دمشق ٣٠/ ٣٣٢.

(٣) قالها الحجيُّ لرجل. ينظر: آداب العشرة، للغزي، ص٦٨.

(٤) قـال رجل لميمون بن مهران: يا أبا أيوب، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، قال: (أقبل على شأنك؛ ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم). سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٥.

(٥) قال إسـماعيل بن إسـحاق الثقفي: قلت لأبي عبد اللّٰه أولَ ما رأيته: يا أبا عبد اللّٰه ائذن لي أقبِّل رأسك، فقال: لم أبلغ أنا ذاك. الجامع لعلوم الإمام أحمد ٢/ ٣٢١.

(اقعد. أي شيء ذا؟ من أنا؟)[1].

(إليَّ أنا؟).

(لا، بل جزى اللّٰه الإسلام عنِّي خيرًا، ثم قال: ومن أنا؟ وما أنا؟)[2].

(من أنا حتى تجيئون إليَّ؟ من أنا حتى تجيئون إليَّ؟ اذهبوا اطلبوا الحديث)[3].

(يا أبا عبد اللّٰه، إن سمعت منك هذا ثانية لم ترني عندك)[4].

(هذا فساد لقلب الرجل)[5].

---

(١) قال محمد بن موسى بن أبي موسى: رأيت أبا عبد اللّٰه وقد قال له خراساني: الحمد للّٰه الذي رأيتك. فقال له: اقعد أي شيء ذا؟ من أنا؟. الجامع لعلوم الإمام أحمد، ٢/ ٣٢١.

(٢) قال أحمد بن الحسين بن حسان: دخلنا على أبي عبد اللّٰه فقال له شيخ من أهل خراسان: يا أبا عبد اللّٰه، اللّٰه اللّٰه! فإن الناس يحتاجون إليك، قد ذهب الناس، فإن كان الحديث لا يمكن فمسائل، فإن الناس مضطرون إليك. فقال أبو عبد اللّٰه: إليَّ أنا؟ واغتم من قوله، وتنفس الصعداء، ورأيت في وجهه أثر الغم. وقيل لأبي عبد اللّٰه: جزاك اللّٰه عن الإسلام خيرًا. فقال: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا، ثم قال: ومن أنا؟ وما أنا؟ الجامع لعلوم الإمام أحمد ٢/ ٣٢١.

(٣) قال محمد بن أحمد بن واصل: سمعت أبا عبد الله غيرَ مرة يقول: من أنا حتى تجيئون إليَّ؟ من أنا حتى تجيئون إليَّ؟ اذهبوا اطلبوا الحديث. الجامع لعلوم الإمام أحمد ٢/ ٣٢١.

(٤) قال أبو بكر الأثرم: أُخبرتُ أن الشافعي قال لأبي عبد اللّٰه - أحمد بن حنبل -: إن أمير المؤمنين -يعني: محمدًا- سألني أن ألتمس له قاضيًا لليمن، وأنت تحب الخروج إلى عبد الرزاق، فقد نلت حاجتك تقضي بالحق، وتنال من عبد الرزاق ما تريد. فقال أبو عبد الله للشافعي: يا أبا عبد اللّٰه، إن سمعت منك هذا ثانية لم ترني عندك. فظننت أنه كان لأبي عبد الله في ذلك الوقت ثلاثون، أو سبع وعشرون سنة. الجامع لعلوم الإمام أحمد ٢/ ٣٢٠.

(٥) قال المروذي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: لا يزال الرجل يقال له في وجهه: أحييت السنة؟ قال: (هذا فساد لقلب الرجل). شرح منظومة الآداب الشرعية للحجاوي، ص٨٧، والجامع لعلوم الإمام أحمد ٢/ ٣٢١.

(لا تقل هذا يا أبا عثمان، لا تقل هذا يا أبا عثمان، ومن أنا في الناس؟!)[1].

وهذه جُمَلٌ منتقاة من نفيس أقوال الإمام أحمد رحمه الله في صدِّ المادح وقطع استرساله.

* * *

- بذل المدائح واجتلاب المنائح.

(ما من عبدٍ يتقرب إلى آخر إلَّا لنوالٍ منه؛ نوالٍ ديني أو دنيوي). اجعلها قاعدة حاضرة في الذِّهن، حاجبة عن التأثُّر والافتتان بأبواق المدَّاحين؛ وهي مطَّردة مشاهَدة في معاملات الخلق ومقاصدهم، فاحرص على ما تعرفه من نفسك وقوِّمها، ولا تُشغلنَّ أذنك وقلبك بوساوس المدح والإطراء.

ومن جميل ما عبَّر عنه الأديب الجاحظ في هذا المعنى قوله في شأن المداحين: (فأما ثناء المدَّاحين لك في وجهك، فإنما تلك أسواق أقاموها للأرباح، وساهَلُوك في المبايعة، ولم يكن في الثناء عليهم كلفة، لكساد أقاويلهم عند الناس، أولئك الصَّادُّون عن طرق المكارم، والمثبطون عن ابتناء المعالي)[2].

فاعقد قلبك على قاعدة التعامل عند الناس، لتستريح؛ فلا تغزُوَنَّه المدائح.

---

(١) قال خطاب بن بشر: قال أبو عثمان الشافعي لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: لا يزال الناس بخير ما منَّ الله عليهم ببقائك، وكلام من هذا النحو كثير. فقال له: لا تقل هذا يا أبا عثمان، لا تقل هذا يا أبا عثمان، ومن أنا في الناس!
قال خطاب: وسألته عن شيءٍ من الورع، فرأيته قد أظهر الاغتمام وتبين عليه في وجهه، إزراءً على نفسه، واغتمامًا بأمره، حتى شق عليَّ، فقلت لرجل كان معي حين خرجنا: ما أراه ينتفع بنفسه أيامًا، جددنا عليه غمًّا. شرح منظومة الآداب الشرعية للحجاوي، ص٨٨، والجامع لعلوم الإمام أحمد ٢/ ٣٢١، ٣٢٢.

(٢) رسالة المعاش والمعاد (ضمن رسائل الجاحظ) ١/ ١٢٩.

- قطع الطمع.

عن عبيد اللـه بن عمر، أن عمر بـن الخطاب عليه رضوان اللـه تعالى، قال لعبد الله بن سلام رضي الله عنه: مَن أربابُ العلم؟ قال: (الذين يعملون بما يعلمون)، قال: فما ينفي العلم من صدور الرجال؟ قال: (الطمع)[1].

عقَّب أبو الوليد ابن رشـد رحمه الله، قائلًا: (مَن لم يعمل بعلمه لم ينتفع به، وكان حجةً عليه، فليس من أهله على الحقيقة؛ إذ هو دون مرتبة الجاهل. وقوله: (فما نفـاه من قلوبهم): معناه ما نفى انتفاعهم به من قلوبهم بتَرْكِ اسـتعمالهم؛ إذ لا ينتفي العلم عن قلوبهم بالطمع، وإنما ينتفي به استعماله)[2].

ويوضح كلام ابن رشـد هذا قولُه في موضعٍ آخر: (وأمَّا قولُه: إن الطمع ينفيه من صدورهم: فمعناه أن الحرص على بلوغ شـهوات الدنيـا يُدخلهم في المكروه فيُذهلـون به عن التوقِّي مما يجب عليهم التوقِّي منه، فإنه ينفي عن صدورهم بالطمع استعمال العلم لا العلم، فهو مجاز من القول)[3].

* * *

يجب أن يروِّض العبد قلبه ومشـاعره بالإخلاص والقناعة والتواضع وغيرها من جميل الأخلاق، وسـدِّ منافذ الطمع والجشع والتمرُّن على ذلك؛ إذ لا نجاة لقلبه إلَّا بذلك.

وذلـك أنه (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلَّا كما يجتمع الماء والنار والضبُّ والحوت. فإذا حدثتك نفسُـك بطلب

(١) رواه الدارمي في سننه ١/ ٤٦٩- ٤٧٠، رقم (٥٩٥).
(٢) البيان والتحصيل ١٨/ ١٠٤.
(٣) البيان والتحصيل ١٨/ ٢٣٠- ٢٣١.

الإخلاص فأَقبِل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبِل على المدح والثناء فازهد فيهما زهدَ عشَّاق الدنيا في الآخرة؛ فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهدُ في الثناء والمدح؛ سهُل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يُسهِّل عليَّ ذبحَ الطمع والزهدَ في الثناء والمدح؟

قلتُ: أمَّا ذبح الطمع فيُسهِّله عليك علمُك يقينًا أنه ليس من شيء يُطمَع فيه إلَّا وبيد الله وحدَه خزائِنُهُ؛ لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبدَ منها شيئًا سواه.

وأمَّا الزهد في الثناء والمدح فيُسهِّلُه عليك علمُك أنه ليس أحدٌ ينفعُ مدحُه وَيزين ويَضرُّ ذمُّه وَيشينُ إلَّا الله وحدَه؛ كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زَيْنٌ وذمِّي شينٌ. فقال: «ذلك الله عز وجل»[1]؛ فازهد في مدح من لا يَزينُك مدحه وفي ذمِّ من لا يَشِينك ذمُّهُ، وارغب في مدح مَن كلُّ الزين في مدحه وكل الشين في ذمِّه.

ولن تقدر على ذلك إلَّا بالصبر واليقين؛ فمتى فقدتَ الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب. قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝﴾[3][4].

٣- سدُّ ذرائع أماني الشرف والمنزلة.

ذكر الله تعالى للصحابة رضوان الله عليهم صنيعَ العُجب بصاحبه، وكيف أنه

(١) رواه الترمذي، رقم (٣٢٦٧)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) سورة الروم، الآية: (٦٠).

(٣) سورة السجدة، الآية: (٢٤).

(٤) الفوائد، للإمام ابن القيم، ص٢٢٠.

سبب بلائهم، حتى وإن كان المعجب صحابيًّا مجاهدًا في معسكر النبي ﷺ، فيقول سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[1].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم أفسد لها من حرص المرء على المال، والشرف لدينه**»[2].

ونهى النبي ﷺ عن تمنّي لقاء العدو المحارب، مع أن فيه قمعًا لمادة الشّرك وإزالة من يَحُولون بينهم وبين دعوة التوحيد؛ (لما في ذلك من العُجب والغُرور واحتقار الأعداء وازدرائهم، الذي هو انتفاء للحيطة والحزم المطلوبَيْن)[3].

وجاء نهي النبي ﷺ عن طلب الإمارة، وكذلك الولايات والوظائف كلها، ونهى عن الحرص عليها؛ لما في ذلك من تعريض العبد نفسَه لعملٍ قد لا يقوم بحقوقه، فيكون مُعَرِّضًا نفسَه للخطر، ولما في ذلك غالبًا من العُجب والغرور، فإنه ما طلبه إلَّا معتدًّا بنفسه وقوَّتِه، ناسيًا إعانةَ الله تعالى وتوفيقَه[4].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: هلك الناس، فهو أهلكُهُم**»[5]. فهو أهلكُهم وأَسْوَؤُهم حالًا فيما يلحقه من الإثم في عيبهم، والإزراء بهم، والوقيعة فيهم، ولأنه ربما أدَّاه ذلك إلى العُجب بنفسه، ورؤيتُه أنه خير منهم، فيهلك[6].

(١) سورة التوبة، الآية: (٢٥).
(٢) رواه أحمد، رقم (١٥٧٨٤)، والترمذي، رقم (٢٣٧٦).
(٣) تيسر العلام شرح عمدة الأحكام، ص٧٣٨.
(٤) مستفاد من تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، ص٦٨٣.
(٥) رواه مسلم، رقم (٢٦٢٣).
(٦) مستفاد من شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٤٤.

يا طالبَ العلم! عوِّد نفسَــك البُعدَ عن الأضواء، وألّا تجعل من اسمك حديثًا للناس، ســواء كان بهرجةً وتزييفًا، أو نصرةً ورفعةً، فلَأن يكون العبد في ساقة القوم مُتَّضعًا أشــرفُ له من أن يكــون مُقدَّمهم وقد نُفخ بالغرور والزهــو، واختطفت قلبَهُ طبولُ المدَّاحين.

وقــد يُبَرِّر من اعتاد العيش في ضجيج الأصوات والأضواء أن ذلك حفظًا لعزِّ الدِّين وشرف العلم والمنتسبين إليه وغير ذلك من التبريرات! فيقال له:

إنه لا أضرَّ على العبد من إلباس هواه وشغفِهِ بالرياسة ثوبَ الديانة، وأين أنت مــن فعل النبي ﷺ وأصحابه رضــوان الله عليهم حيث كانــوا متواضعين ومُتحلِّين بالأدب الشرعي؟!

والتبريرات كثيرة، والأمر -كمــا يقول ابن قدامة رحمه الله-: إن بعضهم (إذا ظهــر عليهم مخايل الكبر والرياســة، قال أحدهم: ما هذا بكبــر، وإنما هو طلب عزِّ الدين، وإظهار شــرف العلم، وإرغام المبتدعين، فإني لو لَبِســت الدُّون من الثياب، وجلســت في الدُّون من المجالس، شــمتت بي أعداء الدين، وفرحــوا بذلِّي، وفي ذلِّي ذلُّ الإسلام، وينســى الغُرور، وأن إبليس هو الذي سوَّل له هذا، بدليل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه كانوا يتواضعون، ويُؤثِرُون الفقرَ والمسكنة)[1]، كما تجد (أحدهم يسهرُ ليلَه ويُنصب نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها، ويرى أن باعِثَه على ذلــك الحرص على إظهار دين الله تعالــى، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشــار الصِّيت، ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء على نفسه، إمَّا صريحًا بالدعاوى الطويلة العريضة، وإمَّا ضمنًا بالطعن في غيره ليبين في طعنه في غيره أنه أفضلُ من ذلك الغير، وأعظمُ منه علمًا)[2].

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص٢٣٩.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص٢٤١.

المرحلة الثانية: استئصالٌ واقتلاع.

والمراد هنا التخلِّي عن مفردات الغُرور وأترابه؛ كالعُجب، والكبرياء، والفخر، والتكبر، والرياء، والمداهنة.. وغير ذلك مما ورد في الكتاب والسُّــنَّة ذمُّه من أخلاقٍ وأفعال.

ولا يظنَّــن العبدُ أنه باجتناب مظاهر الغــرور الظاهرة على الجوارح أنه لا يعدُّ مغرورًا، بل قد يكون أشدَّهم غرورًا، وقد يكون الظاهر ستارًا ناعمًا لقلبٍ خشنٍ سوَّده النفاق ولفَحَه لهيبُ التمنِّي الحارق.

يوضحه: أنَّ كُمون الداء في عتمات القلب مع استمرار المغذِّيات يكون أدْعى لنموِّها واتِّساع رُقعَتِها، بينما الظاهرُ صمتٌ وسُكون، فحالُه كداءٍ عُضَالٍ استشرى في باطن الجسد ولَمَّا يفترس الظاهر، أو هو كبعض النباتات الطُّفَيلية الدخيلة، التي أخذ الــزارع بقطع أوراقها الظاهرة إذ نَمَتْ، وكرَّر ذلك مرارًا، فينخدع بظاهرها المختفي، بينما هي ضاربة الجذور في الأرض. فهذه أحــوال تُضارع حال المغترِّ، ممن يُخدع بحُسن الظاهر.

فكم من ناصحٍ قد أرســل عبير مواعظه ونصائحه إلى المبتلى بهذا الداء حتى ظن أنه قد شــفاه من رَنَّةِ الشيطان ومسِّه، لكنَّ المُبتلَى قد اقتلع ظاهر ما وجد وأحسَّ به من أمور شــكلية وظاهــرة فقط، بينما الداء الكامن موجودٌ مصونٌ لم تمسُّــه تلك الزواجر، ولم يحاول اجتثاثها واقتلاع مادَّتِها من قلبه.

لــذا، فإنه لتخلية الغرور وتنحيته لا بد من اســتقصاء وتحــرٍّ وتفتيش في كل خارجة وداخلة ونبضــة ودقة ليحصل النقاء؛ فإنه قد تبقى (في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دقَّ وغمض مدركه)[1].

(١) إحياء علوم الدين، ص١٣١٠.

- النقد العلمي واقتلاع جذور الفخر.

وكُنّا إذا الجبَّارُ صعَّرَ خدَّهُ
أَقَمنا لهُ منْ رأسِه فتقوَّما[1]

فرزُ الجيد عن غيره بالنقد الهادف؛ سياطٌ شافية من أوهام الزهو ومُبرئة من وساوس الغرور، وإذا أُحكم نسيجُ الردِّ وقويت مادتُه كان البُرء من مخايل الغُرور والعَظَمة؛ فالقلب الشَّرُود لا يُزعجه إلَّا الاصطدام بالحقائق الراسخة التي تُوقِفُه وتكشف حقيقة حاله، ليعلم أن ستار الزَّهو أضحى منكشفًا.

وهذا أمر يراه المرء في نفسه وإخوانه كثيرًا؛ أنه قد يطغى قلمُ العبد ولسانُه، بل ويشتد طغيانه إذا لم يجد من يستوقفه، أو إذا وجد من يحابيه وينصره، أو من يماريه، فإذا أراد الله بعبده خيرًا وُفِّق له من يرده عن التمادي في إعظام النفس ورؤيتها على غير ما هي عليه، وكذلك يرده عن آرائه وأخطائه التي تشي باعتداده بنفسه واغتراره بإمكاناتها؛ لعله يراجع نفسه ويقف على معايبها.

ومما ينبغي التأكيد عليه:

- الالتزام بضوابط النقد وشروطه، وكذلك لزوم الإنصاف والورع، والردُّ بعلم وبيِّنة واضحة، ولا يكون الهدف من ذلك إسقاطه، بل تقويمه والنصح له وللأمة.
- ليس من شرط الناقد أن يكون عالمًا إمامًا في الفنِّ، فقد يكون كالمِسَنِّ الذي يشحذ السكين. وقد قيل لابن المقفع: لِمَ لا تقول الشعر مع علمك

(١) نسبه ابن أبي زمنين في (تفسيره)، ٣/ ٣٧٦ للمتلمس (جرير بن عبد المسيح)، ونسبه أبو عبيدة معمر بن المثنى في (مجاز القرآن) ٢/ ١٢٧ لجابر بن حُنَيٍّ التغلبي، والنص المثبت أعلاه من تفسير ابن أبي زمنين.

به؟ فقال: (أنا كالمِسنِّ أشحذ ولا أقطع)[(١)].

- ألَّا يتوجه بالمناظرة والمطارحة إلى المتعنِّت المتعصب لآرائه إلَّا من حيث ظنِّ فائدتَها، كردِّ المغترِّين به، أو شفائه عن بعض أوهامه. يقول الغزالي رحمه الله: (فالمتعنت لا تزيده المناظرة إلَّا تمردًا وإباءً، فداءُ التعنُّت لا تفيده المكاوحة[(٢)] شفاءً ولا ذبًّا...)[(٣)].

* * *

وإذا ضُمت إلى النقد كلمات طيبة لاستمالة قلب المنصوح للخير ووَعْظِه رُجِيَ له حصولُ المراد وانتفاء المحذور إن شاء الله تعالى. فإنه كما قال ابن رجب رحمه الله: (ما وُصِل المستثقل من نوم الغفلة بأفضل من ضربه بسياط الموعظة ليستيقظ، المواعظ كالسياط تقع على نياطِ القلوب)[(٤)].

وعلى المنصوح الْتماس النصح والاستماع له والانقياد خاصَّة إذا كان من ذوي العلم والديانة؛ ويقال له: (عوِّد نفسَك الصبر على مَن خالَفَك من ذوي النصيحة، والتجرُّع لمرارة قولهم وعذلهم، ولا تسهلنَّ ذلك إلَّا لأهل العقل والسن والمروءة؛ لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيهٌ أو يستخفُّ به شانئ)[(٥)].

ومن الوعظ الحسن الذي يَشفي عِيَّ النفوس من أوهام الزهو ما حكاه أبو الحسن يحيى بن الحسين القاهري عن حاله، ووعظ شيخه ونصحه، فيقول:

(١) المصون لأبي أحمد الحسن العسكري، ص٦.
(٢) المخاصمة مع إذلال الخصم.
(٣) حقيقة القولين، للغزالي [من منشورات مجلة الجمعية الفقهية]، العدد (٣)، ص٢٧٢.
(٤) لطائف المعارف، ص٥١.
(٥) الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع، ص٢١.

(قدمت مصر، فجئت إلى حلقة ذي النون فرآني وفيَّ استظهار على الحاضرين، فقال لي: (لا تفعل، فإن الله تعالى أخفى ثلاثًا في ثلاث: أخفى غضبه في معصيته، وأخفى رضاه في طاعته، وأخفى ولايتَه في عباده، فلا تحقرنَّ شيئًا من معاصيه فلعلَّه أن يكون فيه غضبه، ولا تحقرنَّ شيئًا من طاعته فلعلَّه يكون فيه رضاه، ولا تحقرنَّ أحدًا من خَلْقِ الله فلعلَّه أن يكون وليًا من أولياء الله)[1].

* * *

ومن سياط النقد ما ذكره السخاوي رحمه الله في ترجمة أحدهم، أنه (قد اشتَهَر أمرُه وأشاع أتباعه أنه يحفظ الصحيحين، وأنه إمام الناس في المذهب الشافعي والحنفي وفي غيره من العلوم على جاري عادة العجم في التفخيم والتهويل... فتزايد اشتهار الدعاوى العريضة منه، وأنه يحفظ عن ظهر قلبٍ صحيحَ مسلم بأسانيده وصحيحَ البخاري متنًا بلا إسناد، بل تارةً يقول: إنه يحفظ اثني عشر ألفَ حديث بأسانيدها، فعقد له المؤيد مجلسًا بين يديه بالعلماء، وألزم بإملاء اثني عشر حديثًا متباينة فلم يفطن لذلك، ولا عرف المراد به، ولا أملى ولا حديثًا واحدًا، بل لم يورد حديثًا إلا وظهر خطؤه فيه بحيث ظهر لمن يعتمد مجازفته، وأن كل ما ادَّعاه لا صحةَ له، وما أمكنه إلَّا التبرِّي مما نُسب إليه)[2].

ثم عقَّب السَّخاوي: (وكان معدودًا من أعيان الأئمة العلماء، لكنه لم يُرزق السعادة في مناصبه؛ لأنه كان ظَنِينًا بنفسه معجبًا بها إلى الغاية، فعجزه الله)[3].

(١) الزهد الكبير للبيهقي، ص٢٩٠، رقم (٧٥٩).
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٨/ ١٥١- ١٥٢. باختصار مواطن منه، وانظر أيضًا: إنباء الغمر لابن حجر، ٣/ ٥٧.
(٣) الضوء اللامع ٨/ ١٥٤.

ومما وجدتــه كذلك -على تجاوزٍ فيها وتعدٍّ في العبارة، وحذفت بعضها- ما أورده المحبِّي في ترجمة أحد الأعيان، وقد ردَّ عليه أحدهم، واشــتدَّ عليه فكان مما نقمه عليه:

(وربما يلهو بلحيته الوســواس الخنَّاس، فيزكي نفسه ويقول: أنا أَتْقَى الناس، وربما لَجَّ به الغرور حتى فضَّل نفسَــه على الجمهــور، وإذا تحكَّم به الطغيان صرَّح وقال: من فــلان وفلان، وحين يقرب بزعمه من نفس الأمر جعل نفســه ثانيًا لواحد الدهر، وليس حظُّه من هــذه الدعوى إلَّا البلوى والشــكوى ولا فائدة ولا جدوى، بل حظُّه منها الجدال والــمِرَاءُ، ومن جهلت نفسُــه قدرَه رأى غيــرَه فيه ما لا يرى، يزعم أنهم لقَّبُوه صاحبَ الســعادة، ولا أدري ما الســعادة التي ينتمي إليها والرياسة التي يلوب ويتهالك عليها؟! إن كانت أخروية فذلك الأمر لا يعرف كيف يكون، وإن كانت دنيوية فالرجل لا محالةَ مجنونٌ مفتــون؛ إذ ليس فيه أثرٌ من آثارها ولا ذرةٌ من غبارها، فالويل له من هذه الدعوى الكاذبــة والتنابز بالألقاب المخطئة الغير صائبة، اللهم إنَّا نسألك عقلًا يعقلنا عن مثل تلك الحماقات، ورشدًا يمنعنا عن تلك الدعاوى الباطلات العاطلات.

(والدعــاوى مــا لــم يقيمــوا عليهــا
بـيِّـنـاتٍ أبـنـاؤهـا أدعــيــاء)[1]

***

ومن ذلــك مقامة بليغة أَلَّفها الســيوطي ردَّ فيها على ابــن الكركي؛ فقد رأى فيه الســيوطي غرورًا علميًّا ودعوى التعالم، وأنه نشر إشــكالات بيــن الناس وحطَّ على العلماء وطلَّاب العلم، فقام الســيوطي بنقده وردِّ إشــكالاته ومسائله، وسمَّاها

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٣٧٨).

(الدوران الفلكي على ابن الكركي)[1]. وبتأمل ردِّ جلال الدِّين عليه تجد أنه لم يسلم

(١) وهـي مقامة مختصرة، تقع في مخطوط من (١١) ورقة، بالمكتبة الأزهرية، لعل من المفيد هنا ذكر بعض النقـاط التي أوردها السـيوطي في المقامة -بتصرف يسـير- مما يختص بالغرور العلمي، فيقـول: فما ذكر حال الأوَّل، ولا جنح إلى تواضع ولا عوَّل، بل شـمخ بأنفه والرأس، وشمر مناخره على الناس، وصال على الكبير والصغير وجاس، وسار بخلق صعب المراس، كأنه ما نشأ بين الأصحاب، ولا مشى بأقدامه في الرحاب، وإنما ذكر إليهم بحبل من السحاب، وأما أنا بالخصوص فما زال منذ صار له في البلد سمعة، وملأ ذكره بين الناس.

وأذكـر أنْ صلَّيت أنا وإيـاه الجمعةَ مرَّةً، وأنا أظن أنه تهذبت أخلاقه وخفف شـره، فأخذ يتعنتني بالمســائل واحدة بعد أخرى، ويطارحني بما أنا -بـل بعض طلبتي- به منه أدرى، فالتفتّ إليه التفات الأسد، ومددت إليه لسانًا هو في السداد كالقدح أو أسدّ، ورفعت رأسي بعد إطراق، وأبدت له شـمس النقول من مطالع الإشراق، فألقيت عليه من البحث ما صفا ورَاقَ، وأقمت عليه الحجة فتلعثم وتألم، وبينت له فساد قوله فلم يحسن أن يتكلم، فانحرف منه المزاج، وأخذت روحه في العلاج، واضطربت نيرانه وماج، واشتد به القلق والانزعاج، وانصدع بالحق صَدْعَ الزجاج، وعيت به البراهين والحِجاج، وضاقت به السـبل والفجاج، وكان يظن أن البحث في العلم بالهوينا كأنه أكل خبز كماج، أو لحم دجاج، أو طعام مزاج، أو حلوى كلاج، كلا بل متشـب في معترك سـاطع العجاج، شديد الارتجاج مر الأجاج، مضطـرم الهياج، بعيد فيه الاندمال عن الشـجاج، ولقد حصرنـاه وقصرناه وأخرجناه من قشـره وعَصَرْنا وجهرنا له بالتغليظ، وأظهرنا للناس ما أبداه من التخليط، فنال شدة وبوسًا، وصيرت أعلامه نكوسًا.

ثم إني إذا تكلمت في رد على أحد أتكلم بعلم وأنطق بحلم وأبالغ في حفظ اللسان وأقتفي آثار السلف بإحســان، ما عوَّدتُ لساني قطُّ بسَـفَهٍ ولا اغتياب، ولا تلفَّظت بكلمة يُخشى عليها سوء الحساب، وأقف عند الحق ولا أُجانب، وأحشد الفوائد والفرائد من كل جانب، وأقــدم تصحيح النية وإخلاص الطويَّة، لا أقول ذلك فخرًا، بل تحدُّثًا بنعمة الله وشـكرًا، وأقصد درء المفاســد وجلب المصالح، والاقتفاء بالسلف الصالح وإزاحة الخطأ وإظهار الصواب وتهذيب المقال وتحرير الجواب وإحياء العلم ورسـمه والتحلي بصفة المجدِّد للدين ووسـمه وتخليد الفائدة في مؤلـف يبقى على مدى الدهـور ويتلى من الأعوام =

من التهويل والتجاوز في العبارة، وقد سبقت الإشارة إلى بعض من ذلك[1].

المرحلة الثالثة: غِراس القِيَم.

يأتي الغرس والتحصين لقيم أساسية تحفظ على العبد قلبَه وعِلْمَه، فلها من المناعة والحصانة ما يكفي لصدِّ دخيل الأخلاق ومساوئها، ويجمع هذه القيم سلامةُ القلب، وتصفيتُه، وحمايته. فمن هذه القيم:

١- غرس الافتقار.

(ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقي الحالي لا العِلمي المجرَّد إلى مُلهم الصواب، ومُعلم الخير وهادي القلوب، أن يلهمه الصواب، ويفتح له طريق السداد، ويدلَّه على حُكمه الذي شرعه لعباده في هذه المسألة فمتى قرع هذا الباب، فقد قرع باب التوفيق، وما أجدرَ مَن أمَّل فَضْلَ ربِّه تعالى ألَّا يحرمه إيَّاه، فإذا وجد من قبله هذه الهمة فهي طلائع بُشرى التوفيق...)[2].

ابن القيم رحمه الله.

فالعبد وما يملكه محض جود وتفضُّل من المُنعم سبحانه وتعالى، فليس منه شيء، ولا به شيء. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ ﴾[3].

= والشهور... ثم إنك تدَّعي منصب العلم غصبًا لا قامت لك عليه حجة، ولا بانت لك فيه محجة، أين تصانيفك التي طَبَقَت الآفاق، أين فتواك التي ملأت بطون الأوراق، أين أماليك المعنعنة بالأسانيد ذات الاتِّساق، أين دروسك التي خضعت لها الأعناق؟! قصارى أمرك أن يأتيك مبتدئون فتُقرئهم في مقدمة أبي الليث والآجرومية، وإن عَلَوْا ففي مبادئ القدوري والألفية، هذه دروس الأطفال، لا فحول الرجال...

(١) ينظر هنا ص٩٤، وما بعدها.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٦/ ٦٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: (١٥).

يقول القِنَّوْجي رحمه الله: (وعلاجــه [العُجب]: المعرفة بأن جميع ما له من الكمال إنَّما هو نعمة من الله، وفضلٌ من غير سـابقةِ تدبيرِ وتصرُّفٍ من نفسـه، فإذا عرف ذلك حقَّ المعرفة وعرف أنه ليس له من نفسـه كمـالًا[1] ينقطع عرق العُجب الذي ينشأ من الجهل)[2].

وإذا تأمَّل المغتر صنيعَه علم أنه إنما ينازع الله -عزَّ وجل- في ربوبيته وكبريائه، فيَذِل ويفتقر إليه.

وتأمل عبارات أُمِّ المؤمنين عائشـة رضي الله عنها لمَّا نزلت براءتها في حادثة الإفك، تقول: (والله، ما كنت أظن أن يُنزَل في شـأني وحيٌ، ولَشـأني كان أحقرَ في نفسـي من أن يتكلم فيَّ بأمر، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرِّئُني الله بها)[3].

يا طالب العلم!

اعلم أنَّ قلبك هو محلُّ نظرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، (والقلب كعبة، وما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنـام)[4]، فعن أبي هريـرة رضي الله عنه، قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسـادكم، ولا إلى صُوَرِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»، وأشـار بأصابعه إلى صدره[5].

* * *

(١) في طبعة دار الكتب العلمية (كما) وهي خطأ، والتصحيح من طبعة دار ابن حزم، ص٢٨٦.
(٢) أبجد العلوم ٢/ ٨٥.
(٣) البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٤) المدهش لابن الجوزي، ص٣٦٣، وينظر: الفوائد لابن القيم، ص٩٥.
(٥) رواه مسلم، رقم (٢٥٦٤).

عن ابــن بُرَيْدَةَ، عن أبيه بريدة بن الحصيب رضي الله عنه، قال: شــهدت مع رسول الله ﷺ فتحَ خيبرَ، فكنت فيمن صعد الثُّلْمَةَ، فقاتلت حتى رُئِيَ مكاني وأبليت، وعليَّ ثوبٌ أحمر، فما علمت أني ركبت في الإسلام أعظمَ منه. قال: الشهرة[1].

قال الذهبي معلِّقًا: (بلى، جُهَّــالُ زماننا يَعُدُّون اليوم مثل هذا الفعل من أعظم الجهاد؛ وبكلِّ حال فالأعمال بالنيات، ولعل بريدة رضي الله عنه بإزرائه على نفسه، يصير له عمله ذلك طاعةً وجهادًا! وكذلك يقع في العمل الصالح، ربما افتخر به الغِرُّ، ونــوَّه به، فيتحوَّل إلى ديــوان الرياء. قال الله تعالــى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾[2])[3].

* * *

وهاك نصيحة ابن حزم بلغة الخبرة والتجربة لتبعث فيك الافتقار والانكسار، يقول رحمه الله: (وإن أُعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلةَ لك فيه، وأنه موهبةٌ مجرَّدةٌ، وهبك إيَّاها ربُّك تعالى، فلا تقابلها بما يُسخطه، فلعلَّه يُنسيك ذلك بعلَّةٍ يمتحنك بها، تُوَلِّد عليك نسيانَ ما علمت وحفظت.

ولقد أخبرنــي عبد الملك بن طريف -وهو من أهل العلــم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث- أنه كان ذا حظٍّ من الحفظ عظيم، لا يكاد يمرُّ على ســمعه شيء يحتاج إلى اســتعادته، وأنه ركب البحر فمَرَّ به فيه هولٌ شديد أنساه أكثرَ ما كان يحفظ، وأخلَّ بقوة حفظه إخلالًا شديدًا لم يعاوده ذلك الذكاء بعدُ.

وأنــا أصابتني علة فأفقت منها وقد ذهب ما كنــت أحفظ إلَّا ما لا قدرَ له، فما عاودته إلَّا بعد أعوام.

(١) رواه الروياني في (مسنده) ١/ ٧٩، رقم (٣٩)؛ وابن عدي في (الكامل) ٢/ ٤٦٧.
(٢) سورة الفرقان، الآية: (٢٣).
(٣) سير أعلام النبلاء، ٢/ ٤٧٠.

واعلم أن كثيـرًا من أهل الحرص على العلم يَجِـدُّون في القراءة، والإكباب علـى الدروس والطلب، ثم لا يُرزقون منه حظًّا، فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب -وحدَه- لكان غيرُه فوقَه، فصحَّ أنه موهبة من الله تعالى.

فـأيُّ مكان للعُجب ههنـا؟! ما هـذا إلَّا موضعُ تواضعٍ، وشـكرٍ لله تعالى، واستزادة من نِعَمِه واستعاذة من سلبها.

ثم تفكَّر أيضًا في أن ما خَفِيَ عليـك وجهلته من أنواع العلوم، ثم من أصناف عِلمـك الذي تختصُّ به، فالذي أعجبت بنفاذك فيـه أكثرَ مما تعلم من ذلك، فاجعل مكان العجب اسـتنقاصًا لنفسك واسـتقصارًا لها؛ فهو أَوْلى، فتفكَّر فيمن كان أعلمَ منك تجدْهم كثيرًا، فلتَهُن نفسُك عندك حينئذٍ.

وتفكَّر في إخلالـك بعِلمك وأنك لا تعمل بما علمت منـه، فلَعِلمُك عليك حجةٌ حينئذٍ، ولقد كان أسلم لك لو لم تكن عالمًا، واعلم أن الجاهل -حينئذٍ- أعقلُ منك، وأحسنُ حالًا، وأعذَرُ؛ فليسقط عُجبك بالكلِّيَّة.

ثم لعل علمَك الذي تُعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخِّرة التي لا كبيرَ خصلة فيها، كالشـعر، وما جرى مجراه، فانظر -حينئذٍ- إلى مَـن عِلمُه أجلُّ من عِلمك في مراتب الدنيا والآخرة؛ فتهون نفسك عليك)[1].

٢- غرس الإخلاص.

فالإخـلاص قيمة كبيرة وهي مناط القَبـول، وإذا تحلَّى العبد بالإخلاص في العلم والعمل طارت من قلبه الظنون الفاسـدة، وتهشَّمت الأوهام، واتَّضع وسكن، ولاذَ بمن بيده خزائن السماوات والأرض، ولا تخفى عليه خافية.

(١) الأخلاق والسير، ص ١٥٧- ١٥٩.

ومـن مواعظ مالـك بن دينار رحمه اللـه، قوله: (يا عالمُ، أنت عالـمٌ تأكل بعلمك! يا عالم أنت تفخر بعلمك! لو كان هذا العلم طلبتَه لله تعالى لَرُئِيَ ذلك فيك وفي عملك)[1].

٣- غرس الدعاء.

فلِعِظَمِ خطر الغرور وسوء فعله في النفوس، يتعيَّن على العبد طلبُ العافية منه ومن أوابده ومَخازيه، ولْيحذر الطالب من إهمال نفسه وتعطيلها عن الإلحاح بسؤال العافية، و(يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيمًا وهو عند الله حقيرًا)[2]؛ فإن النَّفس لا تكاد تَسلم من تبعاته ووساوسه.

٤- غرس استشعار الابتلاء.

فالعلم في الحقيقة ابتلاءٌ واختبار للعبد في الإخلاص، والتواضع، واستعمال الأدب العلمي، وهل سيخلص فيه جمعًا أو تعليمًا؟ وهو امتحان في العمل، وامتحان فـي الصبر والصِّدق فيه. يقول الإمام الشـافعي رحمه اللـه: (إذا خِفتَ على عملك العُجـبَ، فاذكر رضا مَن تطلب، وفي أي نعيمٍ ترغـب، ومن أي عقابٍ ترهب، فمَن فكَّر في ذلك، صغُر عنده عمله)[3].

فالعبد ما مُكِّن من العلم والتعليم، وتبوَّأ مرتبةَ الفَهم والمكانة العَلِيَّة بين الخلق إلَّا ليسـتقيم قلبُه وعمله، ويعلم أنه مرصود ومبتلًى ومُمْتَحَنٌ ثم مسـؤول. يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[4].

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٧٨.
(٢) جلاء الأفهام، ص٢٦٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٢.
(٤) سورة يونس، الآية: (١٤).

ومن أسـف أنّك ترى بعض الطلاب ينظرون إلى العلم على أنه آلة تُستجلب بها المدائح، وساعدٌ يُلتقط نثارها، وهذا تغييبٌ لمقصد العلم الأعظم، فتَغَنِّي المدح والثناء وجعلُه مقصدَ العلم مُوقِعٌ في وعيد شـديد، ومن ذلك ما ذكر الله تعالى في كتابه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1]، وفي الحديث –وقد مرَّ– قول النبي ﷺ: «**تعلمتَ ليُقال: عالـمٌ، وقد قيل**».

* * *

٥- غرس حقيقة العلم.

فهذا الغرس في الحقيقة يقتلِع شـطرًا كبيرًا من غُرور الطلّاب، ويكشـف عن حالة الانفكاك بين (محض الطَّلـب) و(الحسِّ التعبُّدي)، والانفصال بين (المعرفة) و(التطبيق) و(تذوق الحقائق). ولا شـك أن بعض الطلاب قد يكون (سبب غروره ما سـمِع في النقل من تعظيم الفقه، ولم يَدرِ أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى)[2].

فالعلمُ –في الحقيقـة– ما أعان العبدَ على تعظيم الله تعالى، وكان سـببًا في التواضع العلمي، وسدَّ باب العُجب والزهو، وفتح باب العمل.

يقول مالك بن دينار رحمه الله: (مَن طلب العلم للعمل وفَّقه الله، ومن طلب العلم لغير العمل يزداد بالعلم فخرًا)[3].

فعجيبٌ أمرُ الـمُغْتَرِّ يقرأ نصوص التوحيد والإخلاص، وتقرع سمعه مُحفِّزات

---

(١) سورة هود، الآيتان: (١٥، ١٦).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص٢٤١.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٧٨.

التحرُّر من عبودية الخلق وأسر النفس والقلب لغير الله سبحانه، ثم هو بعدُ عبدٌ أسير للمدح والثناء، متلهفٌ لحُسن الذِّكر.

فمتى يتذوق العبد حلاوةَ العلم ويُنقِّي قلبَه من هذا الغرور والزهو؟!

لكن الأمل مفتوح متى أَعمل فِكرَه وخاطِرَه في شرف هذا العلم، وحقيقته، وحقيقة توحيد الله، وتعظيمه، والافتقار إليه، والتأمل في آيات الله وصفاته وأفعاله، فذلك كله نجاة من الغرور، والأمر -كما قال الإمام الشافعي رحمه الله-: (صحةُ النظر في الأمور نجاةٌ من الغرور)[1].

يقول مسكويه: (العالم المستحق لسمة العلم لا يلحقه العُجب، ولا يُبلى بهذه الآفة. وكيف يبلى بها وهو يعرف سببها؟! وأنها مرضٌ سببُه مكاذبة النفس، وذلك أن حقيقة العُجب هي ظنُّ الإنسان بنفسه من الفضل ما ليس فيه، وظنه هذا كذبٌ، ثم يستشعره حتى يصدق به)[2].

٦- غرس الأخلاق.

فالخلق الحسن: كلمة عذبة اللفظ، لينة المجس، عَطِرَة الأثر، محبوبة مقبولة.

أمَّا الخلق السيئ: فلو لم يكن عنه زاجرًا إلا اسمه، وفظاظة جرسه الخشن، وعبوسة الوجه حين لفظه =لكان ذلك زاجرًا عن اقترافه والقرب منه، فما بالُك والشوكُ يحيطه ويزجر المقترب منه: إليك عنِّي، فضلًا عن سيئ أثره وكلومِه على النفس والخَلق. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«اتَّقِ الله حيثما كنت، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»**[3].

(١) إحياء علوم الدين، ص١٨٠٠.
(٢) الهوامل والشوامل، ص٤٠، بتصرف يسير.
(٣) رواه أحمد رقم (٢١٣٥٤)، والترمذي رقم (١٩٨٧).

٧- غرس التواضع العلمي.

عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «وإن الله أوحى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[1].

قال أيوب السختياني رحمه الله: (ينبغي للعالِم أن يضع التراب على رأسه تواضعًا لله عزَّ وجل)[2].

فقـلْ لمـنْ يدَّعِـي فـي العلمِ فلسـفةً
حَفِظْـتَ شَـيئًا، وغابَتْ عنك أشـياءُ

التواضع العلمي مصطلح لـه دلالة كبيرة؛ فهو يضمُّ صفـاتٍ قلبيةً، وقولية، وفعلية، يجب أن يتوطَّنها العبد جميعها؛ قلبًا وقالبًا، صورةً ومعنى؛ ليحصل الانسجام التامُّ في شخصيته.

وأنت تجد هذا من نفسك، فقد تُحْكَم الألفاظ بعِقال التواضع، والقلب جامحٌ في أرض الغرور والعُجب، والضد أيضًا حاصل، فيكون اللسان مُرسلًا بما قد يظن تسميعًا، بينما القلب منطوٍ في أعماقه على نَفْعِ الآخَرين، والبراءة من الحول والقوة، فكان لا بـدَّ من عطف الظاهر على الباطن، وحبس الشـوارد، وعقل الألفاظ، ومنع فلتات القلب؛ ليسلم التواضع المنشود، لا تواضع الـمَلَقِ.

ومن التواضع الذي مَثَارُه الملق والنفاق: التظاهرُ بالمشـي على هَوْنٍ والقلب قفَّاز إلى الدنيا، فإنه (رُبَّ ماشٍ هونًا رويدًا وهو ذئبٌ أطلس)[3].

وفيهم أنشد أبو بكر ابن العربي رحمه الله:

(١) مسلم، رقم (٢٨٦٥).
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٦٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٤٦٨.
والذئب الأطلس: هو الذئب الأمعط الذي تساقط شعره وهو أخبث الذئاب.

تواضعتُ في العلياء والأصلُ كابر
وحُزتُ نِصابَ السَّبقِ بالهَوْن في الأمر
سكونٌ فلا خبثُ السريرة أصلُه
وجُلُّ سكونِ الناس من عظم الكبر[1]

التواضع العلمي والشخصية العلمية:

مما يُشار إليه هنا، أنه ليس معنى الحض على التواضع العلمي (ذوبان الشخصية العلمية) أو (إضعافها) أو (الحط منها)، بل المعنى غير ذلك، فكم من ضعيف في البحث والتأليف جريء على المسائل والترجيح، مستعمِل لعباراتٍ أكبرَ من ماهيَّته وحقيقته الاجتهادية، وكم من عالمٍ نِحريرٍ تواضع قلبًا وقالبًا.

على أن هذه الشخصية العلمية إنما تظهر في حديث العالِم وتصنيفه في أمرين:

أحدها: في ثنايا تصنيفه. بحُسن استعمال أدوات العلم، والتوفيق بين الأدلة، ودفع المُعَارض، مما يكشف عن حُسن ذهنه وقريحته العلمية.

والثاني: التوفيق بين النقول. فيجمع بين حُسن القول والنقل، وحسن النظم.

فكما أن المغرور تظهر شخصيته بجلاء في هذين الرافدين، فترى ضعف الاستدلال وهشاشة أركانه، واستغنائه في موضع يفتقر إلى استئناس.

(١) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي (طبعة دار الكتب العلمية) ٣/ ٤٥١، وفيها: (من عِظم المكر)، وتم اعتماد لفظ (الكبر) عن النسخة التي اعتمدها القرطبي في تفسيره ١٥/ ٤٦٩، ناقلًا عن ابن العربي. والسياق يحتمل لفظتي: (المكر) و(الكبر)، وقدمْتُ (الكبر)؛ لأنها تفي بالمقصود هنا.

يقول البيهقي رحمه الله: (حُسن التصنيف يكون بثلاثة أشياء؛ أحدها: حسن النظم والترتيب. والثاني: ذِكرُ الحُجَج في المسائل، مع مراعاة الأصول. والثالث: تَحَرِّي الإيجاز والاختصار فيما يؤلِّفه)[1].

لذا فإنَّ (مَن كان دَأبُه ليس إلَّا إعادة ما ذكره الماضون، وجمع ما دوَّنه السابقون فهو منحاز عن مراتب التحقيق، معرِّج عن ذلك الطريق بل هو كحاطب ليل، وغريق في سَيل، إنَّما الحبر من عوَّل على سليقته القويمة، وقريحته السليمة مشيرًا إلى ما يستند الكلام إليه من المعقول والمنقول، رامزًا إلى ذلك رمزَ المفروغ منه المقرر في العقول)[2]. والموفَّق مَن وفَّقه الله لحُسن المواءمة بين إنضاج الشخصية العلمية والاستفادة مما وهبه الله من آلاتٍ، وغمط حظِّ نفسه وكَبْحِ جماحها نحوَ أماني الشَّرَف والاغترار بما وهب الكريم وتفضَّل.

معينات التواضع العلمي:

١- طلب العلم لله سبحانه وتعالى.

من جميل ما نُقل عن مالك بن دينار رحمه الله قولُه: (مَن تعلَّم العِلمَ للعمل كسره، ومن تعلَّمه لغير العمل زاده فخرًا)[3].

وقد صاغها الذهبي رحمه الله تعالى بقوله: (فمَن طلب العلم للعمل كسره العلم، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامَقَ، واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العجب، ومقتته الأنفس)[4].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ١/ ٢٦٠.

(٢) فيض القدير ١/ ٢، ٣.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧٤، ٥٧٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٩٢.

٢- العلم بأن الله واهب العلم ومانحه.

فلتكن هجيراك الاتِّضاع والخضوع لله واهب العلم ومانح القلم، وأنه ما من نعمة على العبد إلَّا وهو مانحها يعطيها من يشاء ويمنعها من شاء، وأن الله تعالى لو شاء لَسَلَبَها.

٣- حَبْس اللسان عن دَعَاوى الاستقراء.

فلتكن دائرة (صيغ التمريض) منك على ذُكر وفي موضعها الصحيح؛ فغَرغِر قلبك بحلاوة (لا أدري) و(أظن الصواب كذا) و(الأمر مشكل عليَّ) و(المسألة تحتاج إلى بحث) و(الترجيح يحتاج إعادة النظر).. على أن يكون جميعه مصحوبًا بتواضع حقيقي لله تعالى، ﴿ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ۝ ﴾[1].

وعلى طالب العلم أن يأخذ نفسه بالحَيْطة والدِّقة في الألفاظ، خاصة من وصل إلى درجةٍ تؤهِّله للنشر والتعليم والنظر والترجيح. وليس هذا حجرًا على الطالب وحبسًا له عن النظر، بل يقال له: إن استعمال هذا الأدب حَسَنٌ في موضعه، وإذا تبيَّن الحقُّ واحتاج الباحث إلى الجزم، جزم بلا تأخر أو تردُّد أو تعليق.

ومن جميل ما حكاه المعلِّمي رحمه الله في ذلك، قوله: (كان في اليمن في قَضاء الحُجَرية قاضٍ كان يجتمع إليه أهل العلم ويتذاكرون، وكنتُ أحضر مع أخي، فلاحظتُ أن ذلك القاضي -مع أنه أعلم الجماعة فيما أرى- لا يكاد يجزم في مسألة، وإنما يقول: (في حفظي كذا، في ذهني كذا) ونحو ذلك. فعلمت أنه ألزمَ نفسَه تلك العادة حتى فيما يجزم به، حتى إذا اتفق أن أخطأ كان عذره بغاية الوضوح. وفي ثقات المحدثين من هو أبلغ تحريًا مِن هذا، ولكنهم يعلمون أن الحجَّة إنما تقوم بالجزم، فكانوا يجزمون فيما لا يرون للشكِّ فيه مدخلًا، ويقفون عن الجزم لأدنى احتمال)[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٣٧).

(٢) التنكيل ١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

٤- الأدب مع السابقين.

باستعمال الأدب معهم لسابقتهم في هذا العلم، وذلك بالثناء والترحُّم عليهم، وحسن التعامل مع مذاهبهم وآرائهم؛ لسابقتهم، فذلك باب لمعرفة قَدْرِ النفس وضعفها مقارنةً بهم.

ومن هنا نجد بعض العلماء قد أنكر على أحد الشُّرَّاح قوله - في حديث النبي ﷺ: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...**»[1]: (في هذا الحصر نظر).

فنرى مثلًا بدر الدين العيني رحمه الله، يرد عليه ويقول: (ليس من الأدب أن يقال: في كلام النبي ﷺ نظر، بل الذي يقال فيه: أنه ﷺ، ذكر الثلاثة قبل أن يعلم بالزائد عليها، فكان المعنى لم يتكلم إلَّا ثلاثة على ما أُوحي إليه، وإلَّا فقد تكلَّم من الأطفال سبعة)[2].

فالقلم قد يطغى فيفتتح باب شرٍّ وغفلة عن الأدب الرفيع مع الكبار، وصاحب هذه العبارة التي أُطلقت قد يلتمس له العذر والتأويل. ومع ذلك فالتنبيه على فسادها الظاهر مطلب مهم؛ لئلا يغترَّ بمثلها طالب علم في مقتبل أمره تقليدًا له، فيستسيغها ويفتح الباب لمثيلاتها بلا زمام، فينتقل من باب التأويل إلى صريح الغفلة والقول الفاسد، فهذا العالِم وإن اقتُدي به في كثير من أحواله وأقواله، لكنه ليس بسلف للطالب في هذا الباب، وإن كان معذورًا بتأويل ونحوه؛ فالعالِم لا يُقلَّد في هفوته وزَلَّتِه.

وقد يُستفاد هذا المعنى من عتاب الله لموسى عليه السلام، كما ذكر بعض العلماء أنه (من باب التنبيه لموسى عليه السلام، والتعليم لمن بعده؛ لئلَّا يقتدي به

---

(١) البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١٦/ ٣٠.

غيره في تزكية نفسه والعُجب بحالها فيهلك)[1].

ومما يُستشهد به في هذا الموضع أيضًا صنيعُ شهاب الدين الرملي رحمه الله، عندما أجاب عن ثمانية عشر سؤالًا، سُئل عنها جلالُ الدين السيوطي، وهي من مسائل الخلاف المنقولة، فأجاب عن نحو شطرها من كلام قوم من المتأخرين كالزركشي، واعتذر عن الباقي بأن الترجيح لا يُقدِم عليه إلَّا جاهل أو فاسق. فانبرى لها الرملي للجواب، ثم قال: (وليس حكايتي لذلك من قبيل الغض منه ولا الطعن عليه، بل حذرًا أن يقلِّدَه بعض الأغبياء فيما اختاره، وجعله مذهبه سيما ما خالف فيه الأئمة الأربعة اغترارًا بدعواه، هذا مع اعتقادي مزيدَ جلالته، وفرط سعة اطلاعه، ورسوخ قدمه، وتمكُّنه من العلوم الشرعية وآلاتها، وأمَّا الاجتهاد فدُونَه خَرْطُ القَتَاد)[2].

٥- الإقلال من الحديث.

فإن اللسان -ولا شك- معبر من معابر الزهو والغرور العلمي، فمنه ينفث المغرور خباياه ومكنوناته.

لذا، كانت الوصية القيِّمة من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لتميم بن حَذْلَم؛ فعن ابن شبرمة قال: أبصر ابن مسعود تميم بن حذلم ساكتًا، وابن مسعود يحدث القوم، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: (يا تميم بن حذلم، إن استطعت أن تكون أنت المحدِّث فافعل)[3].

(١) عمدة القاري ٢/ ١٩٤.

(٢) فيض القدير ١/ ١٢.

(٣) رواه عبد الله بن المبارك في «الزهد» ١/ ١٣٨، رقم (٤٥) واللفظ له، وأبو خيثمة زهير بن حرب في كتاب (العلم)، ص١٤ رقم (١٨).

وكلام ابن مسعود رضي الله عنه محمول على الامتناع عن التحديث في حال ترتب الزهو والمباهاة عليه أو الفتنة به، وقد بوَّب الخطيب البغدادي على هذا الأثر بقوله: (من كره التحديث على سبيل المباهاة)[1].

ويشهد له ما أورده الخطيب بعده، وهو قول عبيد الله بن أبي جعفر رحمه الله: (إذا كان المرء يحدِّث في المجلس فأعجبه الحديث فليسكت، وإن كان ساكتًا فأعجبه السكوت فليحدث)[2]. وصنيع عبد الله بن المبارك كذلك يدل على أن هذا هو المعنى المراد؛ فقد أردفه بأثر يزيد بن أبي حبيب رحمه الله حيث قال: (المتكلِّم ينتظر الفتنة، والـمُنصِت ينتظر الرحمة)[3].

ولا شك أن تَغَيِّي الحديث والنشر، وجَعْلَ ذلك مَعقِدَ النيَّةِ خطرٌ عظيم جدًّا، بل قال عائذ الله أبو إدريس الخولاني رحمه الله: (مَن يتتبع العلم أو الحديث ليتحدَّث به لم يجد رائحة الجنة)[4]. وقال ابن قتيبة رحمه الله: (وكان طالب العلم فيما مضى يسمع ليعلم، ويعلم ليعمل، ويتفقَّه في دين الله لينتفع وينفع، فقد صار طالب العلم الآن يسمع ليجمع، ويجمع ليُذكر، ويحفظ ليغالب ويفخر)[5].

وعن يزيد بن أبي حبيب رحمه الله قال: (إن من فتنة العالم أن يكون الكلامُ أحبَّ إليه من الاستماع، قال: وفي الاستماع سلامة، وزيادة في العلم، والمستمع شريك المتكلم، وفي الكلام -إلَّا ما عصم الله- توهُّق وتزين وزيادة ونقصان. قال: ومن العلماء من يرى أنه أحق بالكلام من غيره، ومنهم من يزدري المساكين،

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٣٣٧.
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٣٣٨، رقم (٧٦٧).
(٣) رواه ابن المبارك في الزهد رقم (٤٦).
(٤) رواه ابن المبارك في الزهد رقم (٣٧).
(٥) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية، ص١٨.

ولا يراهم لذلك موضعًا، ومنهم من يخزن عِلمَه، ويرى أن تعليمه ضَعَةً[1]، ولا يحب أن يوجد العلم إلَّا عنده، ومنهم من يأخذ في علمه مأخذَ السلطان حتى يغضب أن يُرَدَّ عليه من قوله شيء، وأن يغفل عن شيء من حقه، ومنهم من يُنصِّب نفسه للفُتيا، فلعلَّه يُؤتى بأمرٍ لا علمَ له به فيستحي أن يقول: لا علمَ لي به، فيُرجم فيُكتب من المتكلِّفين، ومنهم من يروي كل ما سمع، حتى أن يروي كلام اليهود والنصارى إرادة أن يُعَزَّز كلامه)[2].

وقوله: (إرادة أن يعزَّز كلامه): أي أن يفخِّم كلامه ويعظِّم بكثرة ما يحشد من الروايات والأسانيد والسماعات وإن كانت واهية.

* * *

فما سبق من إشارات هي من معينات التواضع العلمي والإخلاص، والتقيُّد بها يسدُّ بابًا عظيمًا من فتنة القول والعمل.

---

(١) عند عبد الله بن المبارك في (الزهد): (ضيعة).

(٢) رواه ابن المبارك في (الزهد) ١/ ١٣٤- ١٣٥، رقم (٤٠)، ومن طريقه: ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) ١/ ٥٤٨- ٥٤٩، رقم (٩١٠) وهو لفظه. وفي الإسناد ضعف.

ضبط وتحقيق

بعد جَوَلَانِ الفكر فـي الاغترار والزهو، كان لا بدَّ من اسـتلال خيط الغَلَس وفصل ألوان الاشتباه لتظهر حقائق الفروق؛ لئلا يُظن في جميع الواردات والخَطَرَات تعميمُ الحُكْم، ليُحمد حينها ذلك التمايز، وليسْلَم للناظر فيه من وسواس يؤرق فكره ويكدُّ خاطره بوضع جميع أفعاله في دائرة الذَّم والحطِّ.

فـإن العقل والتحقيق يدلَّان على وجود فرق شاسـع بين معرفة الرُّتبة العلمية وصَوْنِ القلب عن دَركِ الاغترار، والفرق بين طلب الشـرف وطلب النبوغ العلمي، وكذلك الفرق بين (كبوة المغتر) الكاشـفة عن عصيانه، و(زَلَّة العالم) المغمورة في بحر إحسانه، ومنها أيضًا تحقيق العلاقة بين الغرور العلمي وعلوم الآلة، وكون تلك العلوم قد تكون شحذًا للذهن العلمي للطالب، أو بابًا للزهو... وغيرها من المنتخَبات التـي تعنُّ وتحوِج إلى إعادة النظر، والتجاوز عن الخطـرة الأولى فيها للتوصُّل إلى مقام ضبط وتحقيق.

(١) صَوْنُ الرُّتبة وصون القلب.

وإذ ننادي بالاعتناء بالقلب؛ بصونه عن الانزلاق في درك الاغترار، فإننا يجب ألَّا نخلـط بين مقامين؛ مقام معرفة الرتبة العِلميـة، ومقام صون القلب عن الاغترار، ليحصل اتِّزانٌ وفصلٌ بيـن المقامين؛ فمعرفة الرتبة العلمية تفيـده وتُعينه في معرفة احتياجاته العلمية والعملية والسـلوكية، وتُطلِعُه على مدى التأهل للنظر في المسائل والقضايا، فهذا باب إلى إبداعٍ ورقيٍّ ونبوغٍ وليس ماحقًا ولا وائدًا.

لذا، فإن الدعوة إلى الحطِّ من نفسية المتعلِّم وإهمال معرفته بقدراته العلمية والمهارية دفنٌ لإمكاناته في أرض الخمول بطريق عكسي، وهو من الخطأ بمكان، نعم، يُعلَّم التواضع العلمي وأدب العلم والإخلاص والصدق، وتحرير قلبه من اللوثات ويتمرن عليها، لكنه لا بد أن يُدل معها على ما يفيده؛ من استغلال طاقاته ومهاراته المُودَعة بين جنبيه، والتي بذل من كدِّه وجدِّه لتحصيلها والتحقق بها، وإلَّا خسرنا طالبًا، ووأدنا فكرًا خليقًا بنفع الأمة علمًا ودعوة.

(٢) طلب الشرف وطلب النبوغ العلمي.

تمنِّي الشرف والمنزلة من متاع الحياة الدنيا، وطلب النبوغ العلمي محمود مطلوب إذا صدقت الطوية والغاية، ففرقٌ بين من يريد الله والدار الآخرة ومن يريد العلوَّ والشرف.

فهاتان صورتان:

الأولى: تمنِّي الشرف والمنزلة.

والثانية: طلب التحصيل والنبوغ.

فهاتان الصورتان يحصل بينهما التداخل والتلبيس؛ فالأولى -تمني الشرف والمنزلة- من متاع الحياة الدنيا ومن إرادة ثوابها، وتنمُّ عن غرور وزهو دفين، وأمَّا تمنِّي التحصيل والنبوغ فليس كذلك، والعباد فيه متفاوتون لتفاوت ما في القلوب.

ومَن تأمَّل صدر هذه الأمة عَلِمَ عِظَمَ هِمَّتِهم وطموحهم العظيم واستسنام المراتب العليا في العلم والعمل، ومع ذلك كلِّه كانوا أصحاب رِقَّة قلب وتواضع وخفض جناح وإخلاص، فلم يكن تطلُّعُهم للذُّرَى وتَأَهُّبُهم للعُلَا مانعًا من بلوغ ذِرْوَةِ سِنام التواضع ونبذ الاغترار.

(٣) كبوة المغتر وزلة العالم.

قد يكبو المغتر لكن كبوته تكشف عالَمَ الأوهام الذي يعيشه، فتأتي هذه الكبوة لتُحرجه وتكشف سرَّه، فطريقُه رَدِيٌّ غيرُ سوي مليءٌ بالهوى وأشواك الحِيَل. أمَّا العالِمُ الصادق فزَلَّتُه مقرونة بأدبه، وسابقته تغفر لاحقتَه، وقرائن الصدق تشفع له فعله.

(٤) مخايل الزهو وتبرُّع المثبطين.

علـى خطى التعلم ينتصب كثيرون لنصح الطلاب بكلماتٍ تهدف إلى النصح والتقويم، فمن ذلك تلك الإشـارة التي توارد عليها بعضهم -وقد أُسديت إليَّ يومًا- وهي: أن الإنسـان لا يكون كل تركيزه على مسائل الطلب فقط، وأنه يجب المشاركة هنـا وهنالك والكلام مع هذا وإجابة دعوة هذا والرد على فلان وعلَّان، والتفاعل مع قضايا الأمة وأخبارها السياسـية والاقتصادية، ويعنون بذلك ألَّا يتمحَّض الجهد في التلقِّي والتحصيل، وحُجَّتُهم أن الانـزواء والبُعدَ يُورِثُ زَهْوًا وكِبْرًا عن إجابة الناس بإجابتهم إلى كل ما يدعونهم إليه.

فيُقال: لا يُنكَر أهمية ما سبق بضوابطه وشروطه، لكنَّنا نتكلم على إعداد طالب علم.

ومع إعمال النظر المآلي نجد هذا الطالب الذي نَوَّعَ اهتماماتِه وشَغَلَ فِكرَه في زمن الطلب =قد حلَّ بوادٍ غير الذي خطَّط له في مقتبل عمره، وأن الحال سيصل -إن سـلمت حياة المرء عن الأكدار والمعوقات- إلى إلمام عام وجملي بقضايا الواقع، مسألة هنا ومسألة هنالك، وورقة هنا وورقة هنالك.

وهذا مما يدفع إلى القول بأن المتبرعين بالتخذيل كثيرون..!!

فإليك يا طالب العلم نصيحة صِيغت على أنقاض طلاب علم أضاعوا أهدافهم بموهوم النصائح:

- لا ينبغـــي لمن أراد أن يكون عالمًــا، أو مبرِّزًا في فنٍّ، أو محيطًا بأســـراره أن ينصرف عنه ويترك اليقينيات -أثبت التاريـخ والواقع صدقها- إلى لحن من القـــول، وتثبيط مثبط، وتخذيـــل مخذِّل، فالعلم لا يـــكاد يعطيك بعضه حتى تعطيـــه كُلَّك، فكيف والحال أن أكثرنا يعطيه بعضه، ويأتي (ناصح!) لإقناعك بطَحْنِ فُتَاتِ الأوقات إلى ذرَّاتٍ من الشتات.
- العُـــلَا لا يأتي إلَّا ببذل نفيس الوقت والمال والتعـــب، وإلَّا فائتني بمُجِدٍّ جاء فضلةً، أو على جناح التَّرَف وجلسات الربيع والسمر!
- أَعمِلْ نظرَك المآلي، واســـتصحِب حالَ من أضاع العمر في هذه الدنيا، وكيف ســـتكون حســـرتُك في خريف العمر على نفيس ما ضاع في صخب الواقع، والْتماس رضا (المخَذِّلين!).

(٥) فلتة الغرور بين الغفلة والرِّعدة القارصة.

الفلتات ســـقطة المغتر، وهي أول الدرج لينزل دركاتٍ ودركاتٍ؛ فتســـفر عن هوية قلبه ومشربه؛ لتنحطَّ رُتبتُه من سماء الإجلال إلى قاع التصنيف.

لكن الواقع شـــاهدٌ أنه ما من فلتة تحلُّ إلَّا ومعهـــا فرصة يجب اقتناصها؛ فقد تتحول الفلتة إلى نبضة نور، والســـقطة إلى وقفة مراجعة، والرعدة إلى سراج مُزهِر، ليبدو (أسًـــى) و(أملًا) في آنٍ؛ أسى على الواقع، وأملًا في صلاح المستقبل، لتتهشم كُتَلُ الظلام وتتبدَّد شـــباك الخرافة؛ فهي تحمل في طيَّاتها ناقوسًـــا يُنذر ويَدق؛ يدفع الوســـن ويهمز البصير بلذعاتـــه أنْ قد حانت المراجعة والمحاســـبة، وحان إصلاح أســـوارها وتجفيف المادة التي تغذِّيهـــا؛ حينها يرجع القلب خطـــواتٍ وخطوات؛ ليحاســـب نفسَه على خلجاته ومشاعره الغائبة، ويرجع إلى عينه ليُسائلها عن دموعها وانكسارها. فحالُها رِعدةٌ قارصة، أمَّا المآل: فهو شمسٌ تُؤذِنُ بقدوم الربيع.

(٦) علوم الآلة بين نفخة الزهو وطرد الدخلاء.

من العبارات التي شقَّت لها مسارًا في أبجديات الطلب، ترديد كون علوم الآلة بابًا لإذكاء نار الغرور والكبرياء، ومفتاحًا للرياء والخُيَلاء والتركيز على الأصل؛ تنبيهًا له، وحضًّا على ما يُقصد لذاته من علوم الأصول سدًّا لباب الشر على الطالب[1].

لكنـــي لا أدري أي طالب هذا الـــذي يُربَّى على الفرار من آلـــة العلم وأداته، ومفتاح فَهْمِ القرآن وتطبيق أحكامه؟!

أليس من الخســـران النظر شـــذرًا لهذه العلوم التي هي رأس الأمر وسِنامه في صُنع ذهن الطالب، وإزالة شَوْبِ الجهل وغمامة سُوءِ الفَهم؟!

وهذه العبارات لا تكاد تخرج إلَّا ممن رَبَّى الطلاب على التقليد، وقد رُبِّي قبلها علـــى التقليد، والظن به أنه لا يمتلك تصورًا كاملًا لعقل طالب العلم الحقيقي، فيفهم العلم ومسائله بلا أدوات، مستعملًا ذوق السمَّاع الطَّرِب الذي اعتاد سماع المسائل فيقيس ما لم يســـمع على ما قد سمع، ويُعمل ذوقَه في اللغة والخرص والتخمين في التصحيح والتضعيف في السُّنة وفي استنباط الأحكام من النصوص.

وكان الأليق بهذه العلوم أن تنزَّل منزلتَها ويعتبرها طالب العلم بمثابة الســـلاح الذي يدفع به عن الشريعة ترَّهات الدخلاء، وينقح الأفهام لتحسن استيعاب المسائل ويستجاد تصورها.

---

(١) ومما اتُّفق لي في هذا، أن بعض المتسببين إلى العلم قد نصحني بترك الاشتغال بعلم أصول الفقه، وقال: إنه يجرِّئ ويكون مدعاة للغرور. فشـــكوت ذلك حينها إلى شـــيخنا الشـــيخ عبد الكريم الخضير وفقه الله، وقلت: إني قد نصحني أحد المتسبين إلى العلم بكذا وكذا. فأنكر ذلك أشد النكير، وقال: هذا لا يسمى من أهل العلم، وقد ارتضى لنفسه رتبة التقليد، لا رتبة الاجتهاد والتأهل والنظر، وأخذ في تعداد فضائل تعلُّم أصول الفقه.

يقـول القرافي رحمه الله مدافعًـا عن أصول الفقه: (أجمع قـومٌ من الفقهاء الجهَّال على ذمِّه، واهتضامه، وتحقيره في نفوس الطلبة، بسبب جهلهم به، ويقولون: إنما يتعلم للرياء، والسُّـمعة، والتغالب، والجـدال، لا لقصد صحيح، بل للمضاربة والمغالبـة، وما علموا أنه لولا أصول الفقه لم يثبت من الشـريعة قليلٌ ولا كثير، فإن كل حكم شـرعي لا بُدَّ له من سبب موضوع، ودليلٍ يدل عليه وعلى سببه، فإذا ألغينا أصول الفقه ألغينا الأدلة، فلا يبقى لنا حكم ولا سـبب، فإن إثبات الشـرع بغير أدلَّته وقواعدهـا بمجرد الهوى خـلافُ الإجماع، ولعلهم لا يعبئـون بالإجماع، فإنه من جملة أصول الفقه، أو ما علموا أنه أول مراتب المجتهدين، فلو عدمه مجتهد لم يكن مجتهدًا قطعًا)[1].

وقال -رحمه الله- مدافعًا عن علم الأصول ورادًّا على من ألصقه بالجدل كما يحلو للبعض: (فالجدال كالسَّـيف آلةٌ عظيمة حسنة في نفسها، وإنما يَعْرض لها الذم من جهة ما تُسـتعمل فيه، فمن قطع به الطريقَ، وأخاف به السبيل على المسلمين ذُمَّ، فكما لا يُذم السيف في نفسه لا يذم الجدالُ في نفسه، وإنما يُذَمُّ القصد الصارف له إلى الباطل، فما من شيء في العالم إلَّا هو كذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[2]، فجعل الجميعَ فتنةً إشارةً لما ذكرته)[3].

(٧) التواضع العلمي بين التصنُّع والارتياض.

مقام التواضع العلمي عزيز شـريف، ويحتاج إلى اقتلاع معقد الاشـتباه بين حالتين تُشكِلان على من أراد سلامة الـمَخبَر والطَّوِيَّة وهاك البيان:

(١) نفائس الأصول ١/ ١٠٠.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٣٥).
(٣) نفائس الأصول ١/ ١٠٢، ١٠٣.

الحالة الأولى: كون التواضع تخلُّقـًا وارتياضًا؛ رغبة في تحريك آلة التواضع والأدب الشرعي ونبذ الفخر والخيلاء.

الحالــة الثانية: كون التواضع تصنعًا ومباهاةً، فلا يعدو كونَه ســبيلًا لاجتلاب منائح الفخر والنعوت الحسنة بتصنع الأدب الشرعي والتزام التواضع وازدراء النفس في المجامع.

والفــارق بين الحالتين: النية، فإن التخلُّق بالخُلُق الحســن ســبيلٌ إلى تحلّي النفس به، وطريقة لتعويدها عليه؛ أمَّا التصنُّع فهي صنعة بطَّال يُرائي الناس، ويتكلَّف ما لا يُحسِنُه.

وكما قال الجاحظ: (ما يكاد ذو التكلف أن يخفى على أهل الغباوة)[1]، يقصد أن المتكلِّف مفضوحٌ أمرُه، فالأغبياء يرون فيه التكلُّف فضلًا عن أهل المِراس والفراسة.

وهاك بيان الحالين؛ فيقال: إنَّ (التخلق والتشبه بالأفاضل ضربان:

ضرب محمود: وذلك ما كان على سبيل الارتياض والتدريب، ويتحرَّاه صاحبه سرًّا وجهرًا على الوجه الذي ينبغي، وبالمقدار الذي ينبغي، وإيَّاه قَصَدَ الشاعر بقوله:

ولــن تســتطيع الخلــقَ حتــى تَخَلَّقــا

وضــرب مذموم: وذلك ما كان على ســبيل المراءاة، ولا يتحــرَّاه صاحبه إلَّا حيث يقصد أن يُذكر به، ويســمى ذلك رياءً وتصنُّعًا، وتشبُّعًا، ولن ينفكَّ صاحبُه من اضطرابٍ يدل على تشــبُّعِه كما وجد في كتاب (كليلة): (الطبع المتكلف كلَّما زِدتَه تثقيفًا ازداد تعقيفًا)، وعلى ذلك قول الشاعر:

(١) رسالة المعاش والمعاد أو الأخلاق المحمودة والمذمومة، ضمن مجموع رسائل الجاحظ ١/ ٩٤.

وأســـرع مـفـعـول فـعـلـت تـغـيـرًا
تكلُّـفُ شـيءٍ فـي طباعـك ضـدُّه

وإيَّــاه قصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رحمــه الله- بقوله: (مَن تخلَّق للناس بغير ما فيه فَضَحَهُ الله عزَّ وجلَّ، وحالُ المتشــبع كالجرح يندمل على فســاد، فلا بد أن ينبعث ولو كان بعد حين كما قيل:

فــإن الـجــرح يـنـفـر بـعـد حين
إذا كــان الـبـنــاء عــلــى فـسـاد

وكمــا أن العضو المفلــوج لا يطاوع صاحبه في تحريكــه، وإن جاهد، فمتى حركه إلى اليمين تحرَّك نحو الشــمال، وكذا أيضًا الشَّــرِهُ والظلــوم والمتهور، وإن جاهدوا أنفســهم في إخفائها فإن قواهم تأبى مطاوعتهــم، وقد ذمَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله: «المتشــبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَيْ زُورٍ»، **تنبيهًا على أنه كاذب بقوله وفعله، فيتضاعف وِزرُه»**[1].

(٨) تصانيف العلماء ومراجل الخلاف.

النَّاظــرُ في مدونة كبار العلماء والمصنِّفين من الســلف يجــد حظًّا كبيرًا من تصانيفهــم تنحو إلى نجاء الطالب من أتون الخلاف الجدلي، وشَــرَك السفســطة، إلى وادٍ ســهل، كثيرة رياضُــه ومرابعُه؛ ليطَّلع الطالب على زبدة الفكر دون تشــقيق وتفاريع لا تفيد في مَلَكَةِ الفن ومهاراته، وليســوا كما ترى في بعض المتأخرين ممن يطيل التفريع بغية إقنــاع المطلع بآلة الكاتب لا رجاحــة المكتوب، وبصفاء أفكاره وأطروحاته، لا بصفوة العلوم.

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٥٦- ٥٧، بتصرف يسير.

فـكان ديدنهم هو حماية الطالب من الولوج في أتـون الخلاف بإيقاظ الفكر ونقل العلم الصافي بأسـهل عبارة وأخصرها، فلا تجد فيها تنطُّعَ المتأخِّر، ولا مسبار مترقِّبٍ لطوالع نجمه وأُفُولِه.

وشتان بين من جعل مصنَّفه سفينة نجاة، وبين من جعله حبالة للعلوق في شَرَك الخلاف!!

وهاك نصًّا للربيع المرادي رحمه الله يكشف عن حقيقة القوم ونظرتهم للتصنيف، يقول:

(لو رأيتَ الشافعي وحُسنَ بيانه وفصاحتَه لتعجَّبْت منه، ولـو أنَّه ألَّف هذه الكتب على عَرَبيَّتِه التي كان يتكلمُ بها، لم يُقْدَر على قراءة كتبه)[1].

* * *

ومن شواهده المتكاثرة: أن العالم قد يَقتصِر على ذكر بعض ما بحثه، فلا يذكر جميع ما أدَّاه إليه فحصُه ونظرُه، بينما المعجب يرى نفسه محيطًا بالأقوال ومآخذها؛ فيضمر زهوًا، وللعالِم تنقصًا.

لكنه لو نظر في مسـلك هذا المصنِّف لوجد أنه من كمال آلته ونظره أنه يُطْلِع الطالـب على ما يفيد، لا مـا بحثه؛ ليجنبه مصارع الخلاف، وهـذا التصرف معهود ومطروق ووارد.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٤٩.
وفي هذا النقل بيان إمامة الشـافعي وتمكنه، وقد نُقل عن الجاحظ رأيه في كتب الشـافعي فقال: (نظرت في كتب هؤلاء النَّابِغَة فلم أر أحسـن تأليفًا من المُطَّلبي [الشافعي]، كان فُوه ينظُم دُرًّا إلى دُرّ، ونظرت في كتب فلان فما شبهته إلا بكلام الرَّقَّائين وأصحاب الحَيَّات).
مناقب الشافعي ١/ ٢٦٠.

فقــد يذكر ما يراه راجحًا أو نافعًا للطلاب، ولا يُعَدُّ ضعفًا ولا خيانة، على حدِّ قول بعض المزهوين بما حصَّلوا من آلة البحث وموسوعاته الإلكترونية.

***

والعالِم ربما لم ينشط وقت التصنيف ليأتي على جميع الأقوال، وربما اكتفى بتقريرها في موضع آخر من مباحثاته.

ولعل هذا -والله أعلم- ما دفع أبا موســى المديني رحمه الله لبيانه في مقدمة كتابه في غريب القرآن والحديث، ليقول: (وفي أمالي ومصنفاتي أشــياء شرحتها، لم أنقُلها إلى هذا الكتاب كسلًا، واتّكالًا على ذكرِه مرَّةً)[1].

وقد أشار كثيرون في ســياق تقرير منهجية السلف في الكتابة أنهم لا يذكرون كل علومهم، بل ما كانوا يذكرون إلَّا القليل المنتخل.

وممن أشــار إلى ذلك ابنُ المقفــع الأديب، إذ قال: (**غيــر أن الذي نجد في كتبهم هو المُنتَخل من آرائهــم، والمنتقى من أحاديثهم**)[2]، وقال الخطيب البغدادي رحمه الله: (ولكل واحد منهم عندنا من الأخبار ما لو ذكرناه لَطال به الكتاب واتَّســع فيه الخطاب، لكنَّا ســلكنا فيما رسمناه سبيلَ الاختصار، إشــفاقًا على الناظر فيه من الإضجار)[3].

فلا يظن ظانٌّ أن عقــلَ العالم كتابُه المصنَّف أو رســالتُه التي ألَّفها، وإلَّا كان جورًا وظلمًا لعباد الله.

---

(١) المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث ١/ ٥.

(٢) الأدب الكبير والأدب الصغير، ص١٤.

(٣) تاريخ بغداد ١/ ٥٧٢.

ومن شـــواهد ذلك أيضًا، أنَّ الإنســـان قد يكون وافرَ الحجة البيانية الخطابية اللسانية، وفي الوقت نفسه يكون ضامرَها كتابةً وقرطاسًا.

وأنت ترى من طــلاب العلم -بل ومـــن العلماء- مَن هو وافــرُ العلم حجةً وبرهانًا وكمالًا في آلة النظر والتعبير في المجالس، لكنه إذا خلص إلى قرطاســه إذا بالقلم يتثاقل ويتوه في مســالك الفكر وتشييد المباني، فما يكون من الفؤاد حينها إلَّا أن يأخذ جولته في مرابع القوم ويطرح عن نفسه عناء الكتابة؛ لقد لقي من هذا نَصَبًا.

***

وقد حدَّثني أحدهم يومًا -وقد شــكا إليَّ عناء الكتابــة والبحث- أنه إذا ألزم نفسَه في يوم بكتابة ورقات في بحثه، ظلَّ بعدها يومين عليلًا كليلًا.

فلا يأتين طالب معجب بـ (موســوعاته البحثيــة) أو ما حباه الله من آلة بحث وتعبير، ليفخر بها ويدَّعي الاستقراء والتتبع! وكأنه قد فاق السلف في البحث والتقرير!

عَوْدٌ على بَدء:

مصنَّفات الكبار من أهل العلم تنحو أحيانًا إلى اختصارٍ وطيِّ الخلاف، لضمان ســلامة وصول المطَّلع إلى برِّ النجاة، وأن ذلك لا يعني عِيًّا أو نقصًا في آلتهم العلمية والبحثية، كما أن التعاظم والغرور بأوهام الاستقراء لا يكون إلَّا من ناقص الفكر، لم يفهم حقيقة أبجديات الأدب والطلب.

الخاتمة

لم يكن الغرور العلمي يومًا تلك الخطيئة الصَّمَّاء حبيسة الصدور فحسب، بل كانت لها جولات في أعماق الفكر والعقل العِلمي، ولها بصماتها في أبجديات الطلب وأرض العلوم؛ لذا كان هذا التحليل المتواضع لهذه الظاهرة الذائعة، والآبدة القاطعة، التي تعزِل بسَكْرَةِ الزهو طالبَ العلم عن مقصد العلم وعن الاستشفاء بِترياقه، ليحلِّق في عالَم من التِّيه وفقدان الاتِّزان، ولو أن الطالب تغرغر بحلاوة العلم لَكان قد جُنِّب مصارع الغُرور وأفاق من تلك السَّكْرة.

وإليك يا طالب العلم!

- اعلم أن قلبك هو محلُّ نظر الله عزَّ وجلَّ، (والقلب كعبة، والمعبود لا يَرضى بمزاحمة الأصنام).
- لا تستوحشَنَّ صحراء (الوحدة)، ولا تُخيفَنَّك هاجرتها.. فمرارةُ (الكتم) أشهى من حلاوة التسميع، وصومُك عن ماء العُجب أروى وأعمر لأرض العلم، فلْتَقَرَّ عينًا بتواضُعِك وأدبك.
- الْزم غرس العلماء والصالحين ولا تُبالِ.. فجفوةُ الخَلْق مع الإخلاص أوصل لك من أنس العالمين.. فاستعذب إخلاصك تجده حلوًا زُلالًا.
- لا تُغبننَّ حظَّك من الناصحين والناقدين والمقوِّمين.

• اعلم أنَّه لن تسطع أنوارُ علمك حتى تقدح زناد التواضع العِلمي، وحينها ستشرقُ شمس علومِك وتفيض بركتها.

يا طالب العلم:

أمضيت دهرًا في ذِكر الأئمة والعلماء في (محراب التعلُّم)؛ فأين تطوافك عليهم والحلول بناديهم في (محراب التعبُّد)؟! وأين مَزْجُ أنفاسك بحرارة أنفاسهم في ذلك المحراب؟! وأين تَضَمُّخُك بجميل طِيبهم؟!

وختامًا..

أسأل الله لي ولك السداد والصواب، وأن يجعلنا ممن اصطفاهم واختارهم للعمل لدينه، وشرَّفهم بالدعوة إليه على بصيرة.. وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه.

ثبت المصادر والمراجع

١- **أبجد العلوم**، لصديق بن حسن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، ط. ١٩٧٨م، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.

٢- **أحكام القرآن**، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣- **إحياء علوم الدين**، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (بهامشه المغني عن حمل الأسفار في الأسفار لزين الدين أبي الفضل العراقي)، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، دار ابن حزم، بيروت.

٤- **الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة**، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: عمر بن محمود، ط١، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، دار الراية، الرياض.

٥- **أخلاق العلماء**، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّي، تحقيق: الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ، ط ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

٦- **الأخلاق والسير = رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل**، لأبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إيفا رياض، ومراجعة وتعليق: عبد الحق التركماني، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت.

٧- **آداب العِشرة وذكر الصحبة والأُخوَّة**، لأبي البركات بدر الدين محمد الغزي، تحقيق: د.عمر موسى باشا، ط. ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٨- **أدب الدنيا والدين**، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، دار الريان للتراث، والدار المصرية اللبنانية.

٩- **أدب الطلب ومنتهى الأرب**، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد صبحي حسن حلاق، طبعة مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ودار المعراج الدولية بالرياض.

١٠- **الأدب الكبير والأدب الصغير**، لابن المقفع، تحقيق: الأستاذ أحمد زكي باشا، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١١- **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيِّم الجوزية، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، ط١، ١٤٢٣هـ دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية.

١٢- **أعيان العصر وأعوان النصر**، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: علي أبو زيد، وآخرين، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، دار الفكر المعاصر ببيروت، ودار الفكر بدمشق.

١٣- **الإفصاح عن معاني الصحاح**، ليحيى بن هُبَيْرَة الذهلي الشيباني، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط. ١٤١٧هـ دار الوطن، الرياض.

١٤- **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل، ط٧، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، دار عالم الكتب، بيروت.

١٥- **اقتضاء العلم العمل**، للخطيب البغدادي، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط٥، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق.

١٦- **أقرب الموارد في فُصَح العربية والشوارد**، سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، ط١، ١٤١٦هـ دار الأسوة للطباعة والنشر، إيران.

١٧- **إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم**، لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصَبِي، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة.

١٨- **إنباء الغمر بأبناء العمر**، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. حسن حبشي، ط. ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر.

١٩- **بحر الفوائد= معاني الأخبار**، للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري، تحقيق: وجيه كمال الدين زكي، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، دار السلام، القاهرة.

٢٠- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٢١- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه- القاهرة.

٢٢- **بيان فضل علم السلف على علم الخلف**، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، ط٢، ١٤٠٦هـ دار الصميعي- الرياض.

٢٣- **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه في مسائل المستخرجة**، لأبي الوليد ابن رشد القرطبي، تحقيق: د.محمد حجي وآخرين، ط٢، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، دار الغرب الإسلامي- بيروت.

٢٤- **تاج العروس من جواهر القاموس**، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: د.حسين نصار، ط. ١٣٦٩هـ- ١٩٦٩م، مطبعة حكومة الكويت.

٢٥- **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول**، محمد صديق حسن خان القنوجي البخاري، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر.

٢٦- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د.عمر عبد السلام تدمري، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، دار الكتاب العربي- بيروت.

٢٧- **تاريخ بغداد**، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور بشار معروف، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، دار الغرب الإسلامي- بيروت.

٢٨- **تاريخ دمشق**، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٩- **تذكرة الحفاظ**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية- بيروت.

٣٠- **التذكرة الحمدونية**، لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي ابن حمدون، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، ط١، ١٩٩٦م، دار صادر- بيروت.
٣١- **الترغيب والترهيب**، لأبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الجوزي الأصبهاني المعروف بـ(قوام السنة)، تحقيق: أيمن صالح شعبان، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، دار الحديث- القاهرة.
٣٢- **تفسير أبي السعود** [المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)]، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، ط. دار إحياء التراث العربي- بيروت.
٣٣- **تفسير البحر المحيط**، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية- بيروت.
٣٤- **تفسير القرآن العزيز**، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبي زَمَنِين، تحقيق: أبي عبد الله حسين عكاشة، ومحمد بن مصطفى الكنز، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر- القاهرة.
٣٥- **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، مكتبة العبيكان- الرياض.
٣٦- **تفسير عبد الرزاق**، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: د. محمود محمد عبده، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية- بيروت.
٣٧- **تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد**، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، ط١، ١٤٠٣هـ دار الدعوة- الإسكندرية.
٣٨- **التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل**، لعبد الرحمن بن يحيى المعلمي العتمي اليماني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني- زهير الشاويش- عبد الرزاق حمزة، ط٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، المكتب الإسلامي- بيروت.
٣٩- **التنوير شرح الجامع الصغير**، لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تحقيق: د.محمد إسحاق محمد إبراهيم، ط١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، (بدون دار نشر).
٤٠- **التوقيف على مهمات التعاريف**، لعبد الرؤوف بن المناوي، تحقيق: د.عبد الحميد صالح حمدان، ط١، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، عالم الكتب- القاهرة.

٤١- **تيسير العلام شرح عمدة الأحكام**، لعبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، تحقيق: محمد صبحي حلاق، ط١٠، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٦م، مكتبة الصحابة- الإمارات، ومكتبة التابعين- القاهرة.

٤٢- **التيسير بشرح الجامع الصغير**، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، ط. ١٢٨٦هـ دار الطباعة الخديوية- القاهرة.

٤٣- **جامع بيان العلم وفضله**، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، دار ابن الجوزي- السعودية.

٤٤- **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، وآخرين، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، مؤسسة الرسالة- بيروت.

٤٥- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، للخطيب البغدادي، تحقيق: د.محمود الطحان، ط. ١٤٣٠هـ- ١٩٨٣م، مكتبة المعارف- الرياض.

٤٦- **الجامع لعلوم الإمام أحمد**، لخالد الرباط، وسيد عزت عيد، وآخرين، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم- مصر.

٤٧- **جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ**، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، ط١، ١٤٢٥هـ دار عالم الفوائد- مكة.

٤٨- **جمهرة اللغة**، لأبي بكر محمد بن الحسن ابن دريد، تحقيق: د.رمزي منير بعلبكي، ط١، ١٩٨٧م، دار العلم للملايين- بيروت.

٤٩- **جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر**، جمعها: د.عادل سليمان جمال، ط. مكتبة الخانجي- القاهرة.

٥٠- **الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه**، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: د.مروان قباني، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، المكتب الإسلامي- بيروت.

٥١- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٩٦٧م- ١٣٨٧هـ، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.

٥٢- **حصاد الهشيم**، إبراهيم عبد القادر المازني، دار هنداوي- القاهرة.

٥٣- **حقيقة القولين**، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: د. مسلم الدوسري، ضمن منشورات مجلة الجمعية الفقهية السعودية، العدد ٣، جمادى الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٥٤- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ط. ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، مكتبة الخانجي- القاهرة، ودار الفكر- بيروت.

٥٥- **الحيوان**، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م، مصطفى البابي الحلبي- القاهرة.

٥٦- **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، لمحمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي، ط. صادر- بيروت.

٥٧- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، لشهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بابن حجر العسقلاني، ط. دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد، وتصوير: دار إحياء التراث العربي.

٥٨- **الدوران الفلكي على ابن الكركي**، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، مَقَامة تقع في مخطوط من (١١) ورقة، بالمكتبة الأزهرية (توجد نسخة منها بالشبكة العنكبوتية).

٥٩- **ديوان ابن الرومي**، شرح الأستاذ أحمد حسن بسج، ط٣، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية- بيروت.

٦٠- **ديوان طرفة بن العبد**، شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين، ط٣، ١٤٢٣- ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية- بيروت.

٦١- **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني، ط١، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، دار الكتب العلمية- بيروت.

٦٢- **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق: د.إحسان عباس، ود. محمد شريفة، ود. بشار معروف، ط١، ٢٠١٢م، دار الغرب الإسلامي- تونس.

٦٣- **رسائل الجاحظ**، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط. ١٣٨٤هـ- ١٩٧٤م، الخانجي- القاهرة.

٦٤- **الزهد الكبير**، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م، دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية- بيروت.

٦٥- **الزهد والرقائق**، لعبد الله بن المبارك المروزي، تحقيق: أحمد فريد، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، دار المعراج الدولية للنشر- الرياض.

٦٦- **سير أعلام النبلاء**، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط٣، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة- بيروت.

٦٧- **شرح السنة**، للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، المكتب الإسلامي- بيروت.

٦٨- **شرح صحيح البخاري**، لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، ابن بطّال، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، ط. مكتبة الرشد- الرياض.

٦٩- **شرح معاني شعر المتنبي**، لأبي القاسم إبراهيم بن زكريا الزهري الأندلسي المعروف بـ(ابن الأفـليلي)، تحقيق: د. مصطفى عليان، ط١، ١٤١٢هـ- ٢٠٠٢م، م. الرسالة- بيروت.

٧٠- **شرح منظومة الآداب الشرعية**، لموسى بن أحمد الحجاوي الدمشقي الحنبلي، تحقيق: نور الدين طالب، ط. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

٧١- **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، ط٢، دار المعارف- القاهرة.

٧٢- **صيد الخاطر**، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن جعفر المعروف بـ(ابن الجوزي)، تحقيق: طارق بن عوض الله، ط١، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م، مدار الوطن للنشر- الرياض.

٧٣- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ط. (مصورة) دار الجيل- بيروت.

٧٤- **طبقات الشافعية الكبرى**، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، ومحمود الطناحي، ط. ١٣٨٣هـ- ١٩٦٤م، دار إحياء الكتب العربية.

٧٥- **العقد الفريد**، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د. مفيد قميحة، ط١، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية- بيروت.

٧٦- **العلم**، لأبي خيثمة زهير بن حرب، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرياض.

٧٧- **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، إدارة الطباعة المنيرية- تصوير دار الفكر.

٧٨- **العين**، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية- بيروت.

٧٩- **عيون الأخبار**، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري، ط. ١٣٤٣هـ- ١٩٢٥م، دار الكتب المصرية، وتصوير: دار الكتاب العربي- بيروت.

٨٠- **غريب القرآن [المسمى بنزهة القلوب]**، لأبي بكر محمد بن عزير السجستاني، تحقيق: لجنة من العلماء، ط. ١٣٨٢هـ- ١٩٦٣م، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده- القاهرة.

٨١- **الغريب المصنف**، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: صفوان داوودي، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، دار الفيحاء- دمشق.

٨٢- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: يوسف الغوش، ط٤، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، دار المعرفة- بيروت.

٨٣- **الفروق اللغوية**، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، ط. دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع- القاهرة.

٨٤- **الفوائد**، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، ط. دار عالم الفوائد- مكة المكرمة.

٨٥- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، لعبد الرؤوف المناوي، ط٢، ١٣٩١هـ- ١٩٧٢م، دار المعرفة- بيروت.

٨٦- **قواعد الأحكام ومصالح الأنام**، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط. ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة.

٨٧- **كشف المشكل من حديث الصحيحين**، لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق: الدكتور علي حسين البواب، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، دار الوطن- الرياض.

٨٨- **الكليات**، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: د.عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة- بيروت.

٨٩- **لسان العرب**، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، ط. دار صادر- بيروت.

٩٠- **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**، لزين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي الدمشقي، تحقيق: ياسين محمد السواس، ط٥، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، دار ابن كثير، دمشق- بيروت.

٩١- **مجاز القرآن**، لأبي عبيدة معمر بن المثني التيمي، تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين، ط. مكتبة الخانجي بمصر.

٩٢- **مجلة الرسالة**، تحت إشراف: أحمد حسن الزيات، [النسخة الإلكترونية].

٩٣- **مجمل اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، ط. مؤسسة الرسالة- بيروت.

٩٤- **مجموع الرسائل والمنظومات العلمية لحافظ بن أحمد الحكمي**، جمع وتحقيق: أبي همام محمد بن علي الصومعي البيضاني، ط. ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، مكتبة الكلم الطيب- الإمارات.

٩٥- **المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث**، لأبي موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المديني الأصفهاني، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، طبعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

٩٦- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: د. رياض عبد الحميد مراد، ط١، دار صادر- بيروت.

٩٧- **المحاضرات والمحاورات**، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. يحيى الجبوري، ط١، ١٤٢٤هـ دار الغرب الإسلامي- بيروت.

٩٨- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام ابن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، ١٤٢٢هـ دار الكتب العلمية- بيروت.

٩٩- **المحكم والمحيط الأعظم**، لأبي الحسن علي بن إسماعيل ابن سيده المرسي، المعروف بابن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية- بيروت.

١٠٠- **مختار الصحاح**، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ط. ١٩٨٦م، مكتبة لبنان- بيروت.

١٠١- **مختصر منهاج القاصدين**، لأحمد بن عبد الرحمن ابن قدامة المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، ط. ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، مكتبة دار البيان- دمشق، ومؤسسة علوم القرآن- بيروت.

١٠٢- **المخصص**، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: خليل إبراهم جفال، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

١٠٣- **مدارج التعلم بين التأصيل واستكمال التكوين**، للسعيد بن صبحي العيسوي، ط١، ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م، دار الميمان للنشر والتوزيع- الرياض.

١٠٤- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط٣، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي- بيروت.

١٠٥- **المدهش**، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: د.مروان قباني، ط٢، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، دار الكتب العلمية- بيروت.

١٠٦- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لشهاب الدين أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمري، تحقيق: إبراهيم صالح، ط. ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، المجمع الثقافي- أبو ظبي.

١٠٧- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لشهاب الدين أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمري، تحقيق: كامل سلمان الجبوري وآخرين، ط١، ٢٠١٠م، دار الكتب العلمية- بيروت.

١٠٨- **المستصفى من علم الأصول**، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: د.حمزة بن زهير حافظ، ط. شركة المدينة المنورة للطباعة، المدينة المنورة.

١٠٩- **المستطرف في كل فن مستظرف**، لشهاب الدين بن محمد الأبشيهي، تحقيق: عبد الله أنيس الضباع، ط. دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

١١٠- المصون في الأدب، لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، ١٩٨٤م، مطبعة حكومة الكويت.

١١١- معالم التنزيل في تفسير القرآن المعروف بـ(تفسير البغوي)، لمحيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وآخرين، ط٤، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.

١١٢- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: إحسان عباس، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، دار الغرب الإسلامي- بيروت.

١١٣- معجم اللغة العربية المعاصرة، للدكتور أحمد مختار عمر، وآخرين، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، عالم الكتب- القاهرة.

١١٤- المعجم المختص بالمحدثين، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د.محمد الحبيب الهيلة، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، مكتبة الصديق- الطائف.

١١٥- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. محمد إبراهيم عبادة، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م، مكتبة الآداب- القاهرة.

١١٦- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ(الراغب الأصفهاني)، تحقيق: مركز الدراسات بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز.

١١٧- مقالات لكبار كُتَّاب العربيّة في العصر الحديث، د. محمد بن إبراهيم الحمد، [نسخة مصورة].

١١٨- مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط. ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، دار الفكر.

١١٩- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط٢، ١٤٠٩هـ دار هجر.

١٢٠- مناقب الشافعي، للبيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط١، ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م، دار التراث- القاهرة.

١٢١- **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- السعودية.

١٢٢- **الموازنة بين أبي تمام والبحتري**، لأبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي البصري، ط١، ١٢٨٧هـ، مطبعة الجوائب بالآستانة العلية- تركيا.

١٢٣- **نفائس الأصول في شرح المحصول**، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي المصري (المشهور بالقرافي)، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، مكتبة نزار مصطفى الباز.

١٢٤- **الهوامل والشوامل**، لأبي حيان التوحيدي ومسكويه، تحقيق أحمد أمين، والسيد أحمد صقر، ط. الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة.

١٢٥- **الوافي بالوفيات**، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

فهرس الموضوعات

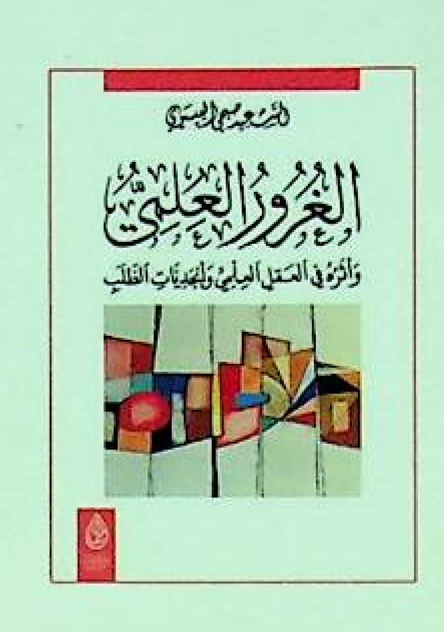
الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع **رقم الصفحة**



الغُرُورُ العِلميُّ

وأثرُهُ في العقلِ العلميِّ وأبجدياتِ الطلبِ

هذا الكتاب

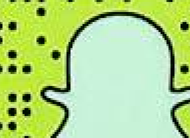
لم يكن (الغُرورُ العِلميُّ) يومًا تلك الخطيئة الصمَّاء التي تدور في فلك النيَّات وعَتَمات الضَّمائر، بل تعدَّت الجنايةُ إلى أعماق الفكر والعقل، وشقَّ طريقه إلى أبجديات الطَّلب ومُسلَّماته، فأمَاعَ أذهان الطلَّاب، ووَلج بهم في تناقضاتٍ وأوهام؛ فآلَ الأمر إلى ضمورٍ في آلة العِلم، وعدم الإفادة الحقيقية من المُحصَّل.

فلا غروَ أن تجدَ المغرور وقد غُرَّ بألوان المديح وأوهام التميُّز، مبتلىً بفيضِ دعاوى الأهلية والتمكُّن، ليتطور الأمر بعدُ إلى ولاءٍ وبراءٍ على الأفكار، حينها لن تجده إلا جبارًا في أرض الطَّلب، شاهرًا سيفَ (الاحْتِراب العِلمي).

ومن الحقائق التي يجب أنْ تكون حاضرةً أن الاشتغال بالتعلُّم دون حصانة قلبية وعِبادية يجعل الطالب عرضةً للآفات المَسْلكية، والتي ستجد سبيلها يومًا إلى مسارب الفكر؛ لذا فإنَّ هذه الورقات تقدِّم رؤيةً تحليليةً لهذه الظاهرة، وأثرها على العقل العلمي وعلى أبجديات الطَّلب، وتسلِّط الضوء على أهم أسبابها وأنواعها، وفيها إبرازٌ لحقيقة (حصاد الهشيم) الذي يحصدُه، كما تقدم رؤيةً علاجيةً للمُبتلى بهذه الآفة.

الناشر

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٨١-٢٨-٧
ISBN 978-603-8181-28-7
9 786038 181287



دار الميمان
DarAlMaiman

هاتف: +966 11 4627336
فاكس: +966 11 4612163
جوال: +966 566405291
موقعنا على الإنترنت: www.DarAlMaiman.com
البريد الإلكتروني: info@DarAlMaiman.com
تابعوا جديدنا على DarAlMaiman

